

مقامات ورسائل أندلسية

نصوص ودراسات

الطبعة الثانية



تأليف: فرناندو دي لا جرانخا (الشتنمري)
ترجمة وتقديم: أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم

مقامات ورسائل أندلسية

نصوص ودراسات

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد: 2/392
- مقامات ورسائل أندلسية
- فرناندو دي لاجرانخا (الشتيمري)
- أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم
- الطبعة الثانية 2010

هذه ترجمة لمقامات ورسائل أندلسية

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.

E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

مقامات ورسائل أندلسية

نصوص ودراسات

تأليف : فرناندو دي لاجرانخا (الشتنمري)
ترجمة وتقديم : أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دى لاجرانخا، فرناندو
مقامات ورسائل أندلسية/ تأليف: فرناندو دى لاجرانخا؛
ترجمها وقدم لها: أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم.
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
١٤٤ ص: ٢٤ سم
١ - المقامات العربية .
٢ - الرسائل العربية .
٣ - النشر .
٤ - الأدب العربي - التاريخ - العصر الأندلسى .
(أ) عبد الحليم ، أبو همام عبد اللطيف (مترجم ومقدم)

رقم الإيداع ٥٧٢٥ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى 6 - 988 - 479 - 977 - 978 I.S.B.N
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

محتويات الكتاب

7	- تهنئة المؤلف وتنويه المترجم
9	- كلمة المترجم
13	- مقدمة المؤلف
19	- الفصل الأول : رسالتان لأحمد بن برد الأصغر
19	أسيرة بنى برد
21	أحمد بن برد الأصغر
24	شعر ابن برد الأصغر
25	نثر ابن برد الأصغر
26	رسالة السيف والقلم
28	فقّر فى وصف القلم والمداد والكتاب
29	مأ كُتب على غرار رسالة السيف والقلم
31	رسالة النخلة
33	هوامش
39	نص رسالة السيف والقلم
45	نص رسالة النخلة
48	ملحق عن ابن برد
53	- الفصل الثانى : ابن فتوح أديب أندلسى غمره النسيان ...
58	هوامش
61	مقامته عن شعراء عصره
63	- الفصل الثالث : من نثر أبى حفص عمر بن الشهيد
68	الحريزى مقلداً لابن الشهيد
70	هوامش
73	رسالته إلى بعض إخوانه
75	فصول من مقامته

83	- الفصل الرابع : المقامة الدوحية لابن عياض
86	هوامش
87	فقرة من مقامته
89	- الفصل الخامس : وصف القلم لابن غالب الرصافي
91	هوامش
93	نص مقامته
95	- الفصل السادس : بيع الأمة في سوق الرقيق عند أبي البقاء الرندي
96	أبو البقاء الرندي
98	خبر أبي البقاء الموجود في الإحاطة
100	رسالتا كتاب الأنس
101	هوامش
109	ملحق نص الرسالتين
111	- الفصل السابع : مقامة العيد لابن المربع الأزدي
117	هوامش
119	نص مقامته
125	- الفصل الثامن : مقامة الوباء للفييه عمر الملقى
131	هوامش
135	نص مقامته في أمر الوباء
141	- المراجع العربية
143	- المراجع الأجنبية

تهنئة المؤلف

يتقدم المؤلف بأخلص التهنئات إلى العلامة الجليل الأستاذ إميليو غرثيه غومث بمناسبة بلوغه الخامسة والسبعين من عمره المديد ، لما أسدى إلى الفكر العربى الأندلسى من خدمات جليلة فى حياته العريضة والطويلة .

وتنويه المترجم

رحل العلامة الجليل الأستاذ إميليو غرثيه غومث ، مأسوفا على رحيله ، ورحل بعده تلميذه وصديقى الأستاذ فرناندو دى لاجرانخا الشنتمرى ، وكان لا يزال فى أوج عطائه العلمى فى الدراسات الأندلسية والأدب المقارن ، منصفاً ومتعاطفاً ، فإلى الأستاذين أهدى ترجمة هذا الكتاب إلى العربية التى أفنيا عمرهما فى خدمتها ، متذكرا ساعات جميلة قضيتها فى صحبتهما فى مدريد الجميلة لن تعود أبداً !!

كلمة المترجم

إذا كان الشعر الأندلسي قد حظى بدراسات كثيرة في اللغة العربية واللغات الأجنبية فإن النثر الأندلسي لم يحظ بمثل هذا النصيب ، وبخاصة مقاماته : فلست أعرف في لغة العرب دراسة وقفت عليها ، اللهم إلا ما يجيء عرضاً ، أو ملحقا لدراسة الشعر ، وهو غبن كبير لضرب من الفن - أيا كانت قيمته - ما يزال في حاجة إلى دراسة ، مهما كانت النتائج التي تفضي إليها ، ضرب من الفن كان ذا سلطان عظيم على الأذواق الأدبية أمدا بعيدا حتى العصر الحديث ، كتب فيه المويلحي ، وحافظ إبراهيم ، حتى العقاد في مستهل حياته الأدبية ، وغير هؤلاء كثير ، حتى ارتأى بعض النقاد أن هذا الضرب من الفن هو الأب الشرعي للقصة العربية ، وقد أثر هذا الفن في الأدب الأوروبي ، فيما يسمى بالقصة البيكارسكية ، وفي أدب الجدل والمناظرة ، وتلك مقولة تحتاج إلى تقصُّ كثير نرجو أن نعود إليه فيما بعد .

دفعنا إغضاء الدارسين عن المقامات الأندلسية إلى ترجمة هذه الدراسات من الإسبانية إلى العربية ، علَّها تكون خطوة في هذه السبيل تقفوها خطوات ، خاصة بعد أن نشرت بعض مخطوطات كانت غير منشورة حين كتب المؤلف فصوله هذه .

تناولت هاته الفصول بعض الشخصيات التي سحب النسيان ذيوله عليها ، وإذا عرفت - على نحو ما - فهي معرفة أسوأ من النسيان - كما يقول المؤلف ، وقد غطت - كذلك - حقبا قلقة مضطربة ، منذ الفتنة المبيرة بسقوط الخلافة ، حتى الأعوام الأخيرة بسقوط غرناطة ، آخر درة جميلة في عقد الإسلام الأندلسي ، زمن كان أحسن الأزمان ، وكان أسوأ الأزمان ، بين أيدينا كل شيء ، وليس بين أيدينا أي شيء كما يقول شيخنا العقاد - رحمه الله - فيما ترجمه عن تشارلز ديكنز .

كانت هذه المقامات أو هاته الرسائل صورة لهذا المجتمع الأندلسي آنئذ ، في ربيع رجائه ، وفي زمهرير قنوطه ، في جده الوقور الرصين ، وفي هزله اللاهي العابث ، هي موضوعات تعكس اهتمام هؤلاء الأدباء في تلك الفترة التي كانت الأمور فيها

سارية إلى الإشاحة والإدبار ، وكانت شمس الازدهار والفناء تؤذن لأفول ومغيب ، فغلبت - آنذاك - على الطبع الصادق أوزار الصنعة وأصفادها ، وتزيا الجمال العاقل البريء بثياب المبالغة والإفراط في الزينة المجتلبة ، وعرف «مضع الكلام ، وصبغ الحواجيب » ، وآض وكد الكاتب - مثله مثل الشاعر في الأعم الأغلب - أن يتقيل من تقدمه ، وأن ينظر بعينه لا أن يودع فيما يكتبه زبدة ما أحسه ، وخلاصة ما شعر به ، أمست الكتابة - شعرا ونثرا - قصورا حمراء لفظية - كما يقول غرثيه غومث - مثقلة بالحلى والزخارف ، لكن موادها الأولية هشة ، بيد أن هذا الحكم ليس على إطلاقه ، فإنك تجد بين الحين والآخر حتى في فترات الانحدار هذه نماذج رائعة تلفحك بحرارة الصدق ، وروعة الأداء ، خلافا لما يراه بعض ضعفه النقدة أو الكتبة أو «الببغاوات» في لغة العرب واللغات الأخرى - الذين يقρφون الأدب العربى - فى عمومه - بكذب الشعور وتدليس غلبة الزخرف والبديع ، وفقر العاطفة والشعور ، وتلك شنشنة ما يزال يلوكها بعض الأميين وأشباه الأميين ، لكنها لا تثبت إزاء زكاة النظرة ، وحصافة الرؤية ، واكتمال أدوات البحث والنظر .

ربما تُتهم بعض هذه الموضوعات فى المقامات بأنها تافهة أو مبتذلة ، ورأينا أن كل موضوع صالح للكتابة إذا أراق عليه الكاتب من وهج نفسه ، وبلاغة تعبيره ، ومسألة شرف الموضوعات وتفاهتها لا مكان لها فى الأدب الصحيح ، المهم أن يتاح للتجربة فنان صادق ، قدير على أن يخرجها من وهدة البعثرة إلى قمة السبك والفن .

مؤلف هذه الفصول هو الأستاذ الدكتور فرناندوى لا جرانشا ، أستاذ كرسى اللغة العربية وآدابها فى كلية الآداب والفلسفة بجامعة مدريد المركزية وحتى العام الماضى كان مدير مدرسة الدراسات العربية فى مدريد ، ورئيس تحرير مجلة «الأندلس» الذائعة الصيت ، والتي توقفت - للأسف الشديد - عن الصدور ، والتي ينبغى أن تنعى إلى عالم الفكر فى حزن وأسى لا ذعين !!

وقف الأستاذ جرانشا حياته على الفكر الأندلسى تاريخا وأدبا ، وبخاصة الجانب النثرى من هذا الأدب ، ويشاركنا فى هذا التراث فلقومه منه نصيب ، وهو تلميذ ومريد مخلص للمستشرق الكبير غرثيه غومث عضو المجمع الملكى للتاريخ واللغة فى إسبانيا ، والمجمع الملكى فى المغرب العربى ، ومؤلف الكتاب امتداد لمدرسة تقصر كل جهودها

- تقريبا - على حقل الأندلسيات ، ولا تكاد تباشر الأدب العربى الحديث إلا المأما ، وتقف أمام هذه المدرسة مدرسة أخرى تهتم بالفكر العربى الحديث عموما ، والأدب العربى الحديث خصوصا ، يرودها الأديب الأملعى الأستاذ بدرو مارتينث مونتايث رئيس جامعة مدريد المستقلة فى الوقت الحاضر ، وهى مدرسة ترى الأدب العربى لم يتوقف عند نهاية الأندلس ، وأن الأدب الحديث امتداد وتطوير وتحديث لهذا التراث الأندلسى الذى يشكل منظرا من لوحة الأدب العربى الضخمة ..

وللأستاذ جرانخا بحوث عميقة فى ميدان الأندلسيات ، وفى تحقيق التراث يتصدى للنصوص القديمة العسيرة فيترجمها فى دقة وأمانة حرية بالإعجاب ، ويكفى أن يقتحم عالم المقامات بكلماتها العوص ، وتعبيراتها الراححة تحت وقر الصنعة والبديع ، وقد تصدى - وما يزال - لموضوعات كثيرة أبان فيها أوجه التأثير العربى فى الأدب الإشباني ، وتتبع مسيرة ذلك التأثير فى حصافة ولوذية ، ويبدو أن طول عشرته للمقامات نضحت فى أسلوبه ، فأسبغت عليه بعض وعورة يلمحها حتى القارئ الإشباني ، سامتنى عنثا فى ترجمتها إلى العربية ، وقد حاولت - أثناء هذا كله - أن أقترب من الأصل الإشباني ما أمكن ، وألا أخون - فى الوقت ذاته - طريقة التعبير العربية التى درجت عليها ، ولم أ تدخل إلا فى حالات نادرة جدا معلقا تعليقا يسيرا ، مفضلا أن يواجه القارئ العربى النص وحده ليرى ما يعن له ، وأعتقد أننى لا أشايح الأستاذ المؤلف فى كل ما ارتأه ؛ فإن بيننا لخلافا يتسع أو يضيق حسب المقام ، لكنه لا يفض - إطلاقا - من قيمة هذا الكتاب الجيد الذى لولا عرفانى بقيمته لما أقدمت على ترجمته إلى لغة قومية .

بقى أن أشكر الأستاذ الجليل جرانخا أن أذن لى بترجمة كتابه هذا ، ولم يضمن على بوقته وجهده فى تذليل بعض الصعوبات ، وإمالة اللثام عن بعض الإغماضات التى ما كنت أراها واضحة ، وتيسيره لى الحصول على شىء من النصوص الأصلية فى مصادرها العربية من مكتبته العامرة ، لذا أنتهز هذه النهضة لأقدم له خالص شكرى وتقديرى .

بانتهاى ترجمة الكتاب حملته معى ، وشدت الرحال إلى قرطبة - عاصمة الخلافة التى شهدت ميلاد كثير من هذه الكلمات ، أو عبر بها أصحابها ، مشيت فى شوارع

الحى القديم فيها ، أنوء بذكرىات الماضى المجيد ، حيث كان يدرج هؤلاء الأسلاف الكرام ، يتنفسون فى هوائها ، ويشربون من مائها ، وتضمهم أرضها الآن فى أحشائها ، أناجى أشباحهم ، وأخالط أرواحهم ، وتميتنى وتحيينى ذكراهم ، هناك اعتقتُ من إसार الزمن ، وأحسست بالأبدية المطلقة تتمشى فى البدن ، وأملّى على قلمي هؤلاء الآباء هاتيك الكلمات التى غلبتنى فيها طبيعة الفن على طبيعة البحث ، أملا فى النهاية أن تصلح مستهلا لذلك الكتاب الذى أرجو أن أكون قد وفقت فى ترجمته .

فإن يكن توفيق فمن الله عز وجل ، وإن لم يكن فمن نفسى ، وحسبى أنه جهد المقل الذى لا يدخر من طاقته شيئا .

وعلى الله قصد السبيل .

أبو همام

قرطبة ١٠ من يناير ١٩٨١ م

مقدمة المؤلف

أجمع فى هذا المجلد بعض المقالات التى ظهرت فى نشرات متعددة ما بين سنة ١٩٥٨ وسنة ١٩٦٧ بالإضافة إلى مقال لم ينشر من قبل ، تدور حول بعض الأدباء الأندلسيين ، يتدرجون منذ النصف الأول من القرن الحادى عشر عندما كانت الخلافة فى قرطبة على شفا التمزق من فتنة مبيرة لم يكن فى ذرع أحد آنذاك أن يلم شتاتها ، وحتى منتصف القرن الخامس عشر حيث كانت مملكة غرناطة تعاني جراح الموت .

يضيف على هذا العمل وحدته هذا النوع الأدبى الذى مارسه هؤلاء الكتاب «السجع» أو النثر المسجوع ، شىء وسط بين الشعر والنثر ، حيث انتهى الأمر به إلى القضاء على النثر الكلاسيكى النبيل ، الرائق ، المحكم ، دون الوصول إطلاقا - حتى ولو من بعيد - إلى جمال الإيقاع ، والتعبير الباهر فى القصيدة ، هذا النثر الفنى - بدون قوانين مرسومة منذ مطالعها البعيدة ، ولا أطر معينة على مر القرون - كان المادة الجميلة التى صاغ فيها أوائل كتاب المقامات مؤلفاتهم ، حيث تسرى - جنبا إلى جنب - البلاغة البديعة والمعجم المتكلف فى خدمة موضوع أصيل وممتع ، هو أحد الأنواع الأدبية العالية الرفيعة فى الأدب العربى .

يمكن أن نعد الهمذانى - من أصل فارسى (توفى سنة ١٠٠٧) - أبا لهذا النوع ، وهو الذى - على أية حال - أولى هذا الفن رعايته ، أما مقلده الحريرى (توفى سنة ١١٢٢) فقد احتذاه ، واضعا ثقله فى اختيار الكلمات الحوشية ، وعمله كله استعراض لأسلوب معقد ، وتحذُّ لأكثر القراء استعدادا ، كان كلاهما الفنانين الكبيرين اللذين من المحتمل أن يكون لهما - حتى أيامنا هذه - مئات من المقلدين جاءوا فى المؤخرة دائما ، ومئات من الشراح المدققين .

إن إسبانيا الإسلامية التى كانت مفتوحة على كل التيارات الجديدة فى الأدب المشرقى قد استقبلت فى بهجة مجموعة مقامات الحريرى ، بتقديم أحد الأندلسيين

وشرحه ، كان قد درسها على المؤلف نفسه ، وهنا أيضا وجدت المقامات مقلدين وشراحا ، حفظت لنا المصادر الأندلسية أسماءهم ، ولم يكن يبقى لنا من الأوائل إلا هذه الأخبار ، ونحتفظ من الآخرين بشرح قيم ، صنّفه عالم من شربش هو أحمد بن عبد المؤمن الشربشى (توفى سنة ١٢٢٢) نشر مرات متعددة فى المشرق ، وعاد الآن إلى الظهور فى القاهرة فى خمسة مجلدات كبار ، فى طبعة جيدة حققها العلامة المصرى أبو الفضل إبراهيم .

يبدو أن المقامة الكلاسيكية مضمونا وشكلا لم تصادف فى الأندلس من يستمر فى كتابتها ، إذا استثنينا التى ما زالت قيد الدرس ، وحتى مخطوطة ، لكنها مذكورة فى كل أنحاء العالم (معلوم على السماع) وهى مقامات الأشرى (المتوفى سنة ١١٤٣) من خمسين مقامة ، وهو رقم كلاسيكى كذلك ، وفيما يبدو تراعى قواعد مقامات الحريرى .

لندع جانبا الأخبار المتعددة عن كتاب آخرين ، وهى أخبار عن أولئك الذين ليس فى الإمكان أن نفيد منهم أدنى فائدة ، أولئك الذين فقدت مؤلفاتهم ، ولم نحتفظ من المقامات الأندلسية التى لدينا لا ببنائها ولا بموضوعها الأصلي ، حفظ الاسم ليس إلا ، اسم عظيم الشهرة ، وعلى نمط ما حدث فى المشرق ، فإن هذا الاسم المشهور من الممكن أن يكون مقدمة لرسالة فى الطب ، وخديعة تجعل القارئ يتوغل فى أسرار التصوف ، ومدخلا لمؤلف جغرافى ، وقناعا لأبحاث شرعية ، إلى آخره ، إلى آخره ؛ كل هذا من الممكن أن يندرج فى المقامة .

بطل المقامات القديمة هو الصعلوك البليغ ، المحتال ، المتسول المزيف ، العبقري ، المستهتر ، وهو - فى النهاية - الجد الروحى القديم لقزمان الفراتشى ولأصدقاء ميمى بنسون(*) : Mimi Pinson أو فيليكس كرول(**) : Félix Krull ، وقد اختفى - وهذا ما ينتظر منه - من الباب الخلفى .

(*) ميمى بنسون : بطة رواية «مشاهد من الحياة البوهيمية» للكاتب الفرنسى هنرى ميرجيه ١٨٢٢ - ١٨٦١ - المترجم .

(**) فيليكس كرول : بطل رواية «اعترافات المحتال - الشاطر» لتوماس مان ، الحائز على جائزة نوبل - المترجم .

ومن جراء ذلك انتهى الأمر إلى الخلط - سواء في الشرق أو الغرب - بين المقامة والرسالة (بالمعنى الواسع للكلمة الثانية) عندما امحت من الأولى كل معالمها حاشا السجع الذي كان خصيصة جوهرية في الرسالة الأدبية .

تنتقل كلمة مقامة إذن لتدل على كل تمرين بلاغى فى نشر مسجوع ، مطعم بالشعر أو لا ، مستوحى من أى باعث : تهنئة لقاضٍ عين حديثاً لمدينة ما ، مصاحبة لسفط من فاكهة باكورة ترسل هدية ، وصف منظر ، حكاية حادث ذى أهمية ضئيلة ، حوادث الأسفار ، الاعتذار ، المدح ، أو الهجاء ، أو ببساطة تسلية المؤلف ، أو إنجاز الوقت ، أى باعث صالح . يدعى هذا التصنيف المتدرج حتى الاختناق بكل الاستعراض فى اللغة ، والبلاغة ، والحذقة إلى درجة الإغماض - رسالة أو مقامة دون تمييز ، ودون مبالاة بالموضوع (هذا إذا كان ثمة موضوع) وإن كانت الرسالة لا تزال كثيراً - تتخذ المصطلح الأكثر شيوعاً ، هكذا وصل الأمر إلى هذا الحد ، لدرجة أن نوعاً أدبياً له كيانه المتميز هو المفاخر - تقليد عريق أيضاً فى إسبانيا فى حدودها الإسلامية والمسيحية - قد انتهى كذلك إلى فقد اسمه ، وأطلق عليه رسالة على السواء .

كان فى نيتى منذ البداية أن أعنون هذا المجلد «مقامات أندلسية» فقط ، لكنى فى النهاية فضلت أن أعرج أيضاً على الرسالة ، لكى أعول تماماً على العناوين التى خلعتها عليها كاتبوها ، أكثر من تعويلى على المضامين التى تحتويها ؛ ليس ذلك لأننى أعتقد أنهما كانا فى الأندلس ضربين مختلفين ؛ ولكى نرى إلى أى حد كانا مترادفين بالنسبة إلى الكتاب الأندلسيين ، مقامة أو رسالة ، فإننى أقدم مثالين من حقبتين مختلفتين ، يفضيان وحدهما بالمراد .

ضم ابن بسام (القرن الثانى عشر) فى الذخيرة «فصولاً من مقامة تعرب عن حفظ كثير» لأبى محمد بن مالك القرطبى « (الذخيرة ٢/١ ، ص ٢٧٤) وعليه فإنه فى نهاية النص المرفوع إلى ابن صمادح صاحب ألمرية يعلق الكاتب الكبير : «ومد ابن مالك فى رسالته هذه أطناب الإطناب ، وشن الغارة فيها على عدة شعراء وكتاب» (الذخيرة ٢/١ ص ٢٧٥) .

النموذج الثانى ما زال أكثر دلالة ، وهو عبارة عن فقرة من ترجمة للقاضى المالىق أبى عبد الله بن العسكر من زميله أبى القاسم النباهى ، من القرن الرابع عشر (المراقبة العليا . القاهرة ١٩٤٨ ص ١٢٣) يشير فيها إلى أحد مصنفات الأول : مقامة سماها «رسالة ادخار الصبر وافتخار القصر والقبر» أى أنه لا الأول ولا الثانى كان لذيها وعى بأنهما نوعان مختلفان .

أستخدم متعمدا (مازلت أتحدث عن عنوان هذا الكتاب) مصطلح أندلوث Andalus فى موضع العربى الأندلسى . Arábigoandaluz - ولست أستخدم مطلقا مصطلح أندلسى Andalusى الذى إذا جعلناه إسبانياً كانت له بعض رائحة التحذلق ؛ لأن كل الأدباء الذين أتحدث عنهم - فضلا عن أنه لا يبدو خطأ - حاشا ابن غالب الرصافى البلبسى (فى الفصل الخامس ، وفى الواقع الدقيق ملحق الأول) وقد ولدوا فيما يسمى حاليا أندالوثيا Andaluclia(*) .

أريد أيضا أن أسوغ ظهور هذا الكتاب ، فإننى منذ عشرين سنة أنشأت أجمع مادة علمية لدراسة النثر الأدبى الأندلسى ؛ لكى أكتب فى يوم ما بحثا مطولا حول موضوع مهجور ، وفى ذلك الحين لم يكن الشعر الأندلسى «ساندريلا» الدراسات الشرقية كما يطلق عليه الأستاذ غرثيه غومث (الذى يشكر له كثير ما قدمه من جانبه ، إذ خلصه من قيوده حتى غدا أميرة) ، والذى - فضلا عن ذلك - غنم من يده حياة منذ ذلك الحين ضرب آخر من الشعر - الموشحات والزجل - هذه الحسناء النائمة فى غابة الأدب الأندلسى ، ولأنه أيضا أطلق عليها اسم البطلة عند إخوان جريم : Los Hermanos Grimm (**) أقول بدأت فى جمع المادة وترجمة الكتاب ودراستهم ، مادة متناثرة فى مصنفات ابن بسام ، وابن خاقان ، وابن الخطيب ، والمقرئ ، بعضها مطبوع - سيئا أو جيدا - وبعضها الآخر مخطوط ، وعبر سلسلة طويلة من تقلبات الحظ صحبت هذه المجموعة من النصوص قدمت فحسب فكرة عن جانب صغير فى

(*) يطلق هذا المصطلح على جنوب اسبانيا ويشمل فيما يشمل قرطبة وغرناطة وأشبيلية . المترجم .
(**) إخوان جريم : كاتبان ألمان مشهوران ، ولهم ، ويعقوب يشكل الفلكلور المادة الرئيسية فى مؤلفاتهما ١٧٨٦ - ١٨٥٩ ، ١٧٧٥ - ١٨٦٣ على التوالى - المترجم .

نشرات يقرأها المتخصصون فقط ، لكنها لا تصل إلى القراء المثقفين أو بتعبير أفضل لا يصل إليها مثقفو القراء ، أو يصل منهم قليل فقط ، بعض هؤلاء قد حثوني أكثر من مرة على إعادة نشر هذه الفصول في كتاب ، وربما لأنني وجدت أمامي فرصة سانحة أمام إلحاح كريم من صديقي العزيز فرانسيسكو أوتراي مدير المعهد الإسباني العربي للثقافة - الذي أشكره مخلصا - أو ربما لكي أجبر نفسي أن أستأنف عملا كان مهجورا تقريبا حال التفاتي إلى أعمال أخرى ، يظهر الآن بعضها من جديد ، تظهر - تقريبا - في الصيغة ذاتها التي خرجت بها في حينها مع إضافة هامش أو أية إضافة مناسبة اعتقدت ضرورتها .

وفي نهاية تقديم هذه السطور إلى جمهور القراء - (أمل) أن يكون عددا طيبا - أشير إلى الأماكن التي رأيت فيها النور هذه الفصول .

لم يترجم شيء من هذه النصوص التي ترجمت في هذا الكتاب ، والتي تشكل منتخبات يسيرة - أو بتعبير أكثر تواضعا - تشكل نماذج بسيطة لما كان عليه النشر الأندلسي فيما بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ، لم يترجم منها شيء قبل ذلك (ولا بعد ذلك حيث يبلغ علمي) إلى لغة من اللغات ، كان أغلب هؤلاء الكتاب مجهولين تماما ، وفي بعض الأحيان - وهذا يكاد يكون أسوأ - معروفين على غير حقيقتهم ، لأنهم عولجوا بطريق غير مباشرة في دراسات أساسية ، وبأخطاء انسحبت إلى دراسات لم تستخدم المصادر الأصلية .

يغمرني السرور - وليسمح لي ببعض زهو في هذه المقولة - أن بعض هؤلاء الأدباء - الأدباء الإسبان في نهاية الأمر لم يكن لاسمهم أية دلالة ، ومنذ أعوام انتهى بهم الأمر إلى الانضمام إلى تأليف في تاريخ الأدب العربي ، وأنهم قد وجدوا مكانهم في دائرة المعارف الإسلامية وأنهم موجودون حاليا في بعض الدراسات حول موضوعات أدبية أو تاريخية في الأندلس حررها مستشرقون إسبان وأجانب ، وإن كان بعضهم يحتال عند الإشارة إليها ، فيذكر - عند الإشارة إلى هؤلاء الكتاب - النصوص العربية التي أشرت إليها أنا ، آخر هؤلاء الذين درستهم الفقيه عمر المالقي - من جانبه ومن وراء ظهره - بدا في ثياب جديدة في صدر صفحات مجلة شهرية تصدر في مالقة ، ووصل أيضا إلى أن يطل برأسه في صدر صحيفة مدريدية .

كم يروق لى أن تصل هذه الشخصيات وأعمالها حتى وإن كان بعضها قد فقد فى الترجمة - بصورة حتمية - الرونق ، وفقد بعضها الآخر نضارة الأصل إلى أن يهتم بها بعض القراء القلائل البعداء عن حقل الاستشراق ، وإذا انتهى الأمر بهذه الشخصيات - مع مرور الزمن - إلى أن يجدوا زاوية صغيرة فى تاريخ الأدب الإشباني ، فى ظلال إخوانهم الكبار (ابن حزم ، وابن زيدون ، وابن قزمان ، وآخرين من الذين يستحقون الظهور فى ذلك التاريخ) فسوف يكون هذا الغبطة الكبرى التى فى وسعها أن تقدمها إلى ، وتصبح تلك الساعات التى أنفقتها فى دراستها فى موضعها الصحيح .

فرناندو دي لاجرانخا

مدريد ٨ من ديسمبر ١٩٧٥ م

الفصل الأول

رسالتان لأحمد بن برد الأصغر

أحمد بن برد الأصغر هو أحد الشعراء الذين حظوا بصيت كبير بين جماعة الشعراء الأندلسيين ، أعطاه مكانة اللائقة به ثلاثة من مشاهير مصنفى المختارات فى الأندلس : ابن بسام^(١) ، وابن خاقان^(٢) ، وابن سعيد^(٣) ، يتناثر شعره أيضاً ليس فى التراجم التى تتحدث عنه فحسب بل فى الكتب ذات الطابع التاريخى ، وقد أبرز علماء الغرب مكانة ابن برد وقيمته كذلك .

كان ابن برد الأصغر أيضاً كاتباً متميزاً فى النثر ، وقد تعاطى السجع الذى وافق هوى النقاد الأندلسيين الذين قرظوا رسالته فى السيف والقلم .

أركّز فى هذه الصفحات فحسب على نثره الذى اخترته ، وترجمت منه رسالتيه : رسالة «السيف والقلم» ، وأخرى بعنوان «رسالة فى النخلة» .

أسيرة بنى برد :

ينتمى أحمد بن برد - كما يخبرنا كل الذين تحدثوا عنه - إلى أسرة ذات شأن فى قرطبة ، سواء فى مجال الكتابة أو السياسة ، وهذا صحيح ، إذا تذكرنا جده أحمد بن برد الأكبر ، شخصية تبرز فى الصدارة فى لحظات متعددة وحاسمة فى تاريخ الخلافة من بداية العامريين ، شخصية تؤثر فى سير الأحداث من وراء حجاب ، وفيما يختص بأنه كان يستطيع الاحتفاظ بمنصبه الرسمى كاتباً للرسائل (أو أمين الدولة كما يسميه دوزى) خلال سنوات طويلة تميزت بالاضطرابات المديدة فى نهاية الخلافة التى تغير فيها شخص الخليفة أكثر من مرة يكشف لنا هذا بوضوح إلى أى حد كانت مهارته ونفوذه فى مكان عظيم ، وقد شارك - بشكل بارز - فى لحظات جد حرجة ، كلفت آخرين حياتهم بسبب اشتراكهم فيها .

أخذ أحمد بن برد الأصغر من جده اسمه وكنيته أبا حفص ، ولهذا السبب خلط بينهما مراراً ليس الدارسون العرب وحدهم ، بل بعض الدارسين الأوروبيين كذلك .

أما اللقب الذى يميز بينهما : الأكبر أو الوزير للجد ، والأصغر أو الكاتب للحفيد ، فإنه لا يظهر بشفة دائمة فى المصادر القديمة عند الحديث عن أحدهما .

ما صنف، أحد ترجمة كاملة عن الجد أو الحفيد ، ولا أحد - فيما أعلم - درس أعمالهما خاصة ، والأخبار التى نقلها إلينا مترجموها هى فقط موجز مقتضب لحياتهما ، أو على الأكثر مديح معهود ، مبالغ فيه .

أما عن شخصية الجد البالغة الأهمية ، فإننى أحيل القارئ إلى مقال سأنشره قريباً حين أنتهى من دراسة أعماله(*) ، يكفيننا أن نقول إنه برز شخصية نابهة فى عهد المنصور ، وإن لم يكن ثابتاً أنه شغل آنذاك مناصب سياسية ، وظهر كاتباً للرسائل منذ عهد عبد الملك المظفر بن أبى عامر ولد المنصور وخليفته ، وتأخذ مكانته فى البروز مع الحكام المتعاقبين حتى زمن الخليفة المستظهر بالله ، ليموت بعد أربع سنوات بعد بيعة هذا عام ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ م^(٤) فى سرقسطة بعد أن نُفِّى على الثمانين حسب ما حدده ابن بسام^(٥) .

أما ابنه محمد بن أحمد بن برد ويكنى أبا العباس ، فإنه لم ينل فى الأغلب حتى من بعيد - لا بمهنته السياسية ، ولا بمواهبه الأدبية - الشهرة التى حظى بها الجد والحفيد ، ونصادف الترجمة الموجزة الوحيدة عنه فى التكملة^(٦) ، وأكثر الأخبار أهمية - الموجود فيها - هو قرابته بالكاتبين اللذين يشير إلى مكاتبتهم ابن الأبار فى عالم السياسة والأدب ، ولم يحدثنا عنه هو : كان شاعراً أو أدبياً ، وهل اشترك فى مجال السياسة ، حتى أنه لم يذكر لا سنة مولده ولا وفاته ، إلا أنه ظل على قيد الحياة بعد وفاة ولده سنة ٤٤٥ هـ = ١٠٥٣ - ١٠٥٤ م .

فى البيان لابن عذارى خبر واحد يبدو أنه يشير إليه ، ويجب تصحيحه ، يحدثنا عند الكلام عن يحيى بن على بن حمود أن كاتبه كان أبا العباس أحمد بن برد ، وأنه عيّن

(*) لم ينشر الأستاذ جرانخا هذا المقال حتى الآن . المترجم .

الكاتب محمد بن الغرضى وزيراً^(٧) ، من المحتمل أنه حدث لبس فى الكنية ، وأن الأمر يتعلق بأبى حفص الأكبر ، لأن اسم ابنه - كما رأينا - هو محمد وليس أحمد ، ونعلم من مصدر آخر أن ابن برد الأكبر كان كاتباً للحمويين ، ووصلت إلينا كذلك رسالة كتبها هو لعلى بن حمود .

فيما يتعلق بابن برد الأصغر لا ندرى فى أى تاريخ وُلد ، ولا أين ، ربما كان فى قرطبة حيث كانت تعيش أسرته ، وفى نهايات القرن العاشر حسب ما قال هو نفسه فى خبر سوف نراه فيما بعد^(٨).

أحمد بن برد الأصغر .

لا ندرى شيئاً عن سنواته الأولى التى أمضاها فى قرطبة ، لكننا وقفنا على صداقته بأبى عامر بن شهيد وأسرته ، الذين كانت تربطهم علائق ذمة ببنى برد عبر أخبار عديدة : أحد هذه الأخبار عند موت صديق لكليهما هو محمد بن ربيب ، وقد كتب ابن برد شعراً يتحدث فيه عن مرضه الأخير بناء على سؤال ابن شهيد ذلك^(٩) ، وخبر آخر رواه ابن شهيد نفسه ، يدرجه بين أصدقائه ، بصدد رغبة أبى جعفر بن عباس (وزير زهير المعروف) الذى كان يريد أن يلتقى بابن شهيد^(١٠) ، وعندما مات ابن شهيد فى (أول جمعة من جمادى الأولى سنة ٤٢٦ = ١٤ من مارس سنة ١٠٣٥) كان ابن برد أحد الشعراء الذين رثوا هذا الكاتب الكبير^(١١) .

وفى عام ٤٢٧ = ١٠٣٥ حرر أبو حفص أحمد بن برد وثيقة مبايعة الخليفة المرزف (بائع الحصر فى قلعة رباح) ، بل إنه كتب أيضاً من تلقاء نفسه دعوة للاحتفال بعودة الخلافة ، وفى هذا الخبر الذى رواه ابن عذارى^(١٢) يلقبه بالوزير الكاتب ، وقد رأينا أن لقب الكاتب هو الذى يلقب به ابن برد ليفرق بينه وبين الجد الوزير ، وواضح أن هذا الخبر لا يمكن أن يتعلق بالجد الذى مات من ثمانى سنوات .

ينبغى أن نصحح - قبل أن نمضى قدماً - الخطأ الذى اقترفه نيكل Nyki الذى جعل من الجد والحفيد شخصاً واحداً ، ويتحدث عن مكانته العظمى لدى العامريين ، عازياً إليه رسالة السيف والقلم^(١٣) ، ويعزو بيريس Pérés^(*) بدوره إلى الحفيد تحرير

(*) ترجم صديقى الجليل العلامة الدكتور الطاهر مكى كتاب بيريس «الشعر الأندلسى» إلى العربية - المترجم .

بيعة شنجول وليا لعهد الخليفة هشام الثانى^(١٤) ، كما ينسب إليه كذلك رسالتين محررتين باسم سليمان المستعين ، على حين أن كاتبهما هو الجد ، بل إن كلتا الرسالتين موجودتان فى الذخيرة بالفصل المعقود عنه^(١٥) .

أما أهم الأخبار التى لدينا عن ابن برد الأصغر ، فإنها قد وصلتنا على لسانه هو ، وقفنا على نشأته الأدبية فى كنف جده ، وقد كتب ذلك - مزهوا - فى مقدمة كتابه «سر الأدب وسبك الذهب» وهو لون من التراجم الذاتية حفظ لنا ابن بسام جزءا منه ، ولأهمية هذه المقدمة فى الوقوف على أفكار الكاتب الأدبية ، ولأنها تعكس - على نحو ما - تكوينه النفسى ، فقد ترجمتها ، ونشرتها ملحقا لهذا الفصل :

نعلم أن أبا حفص الأكبر توفى فى سرقسطة ، لعله كان ينقب عن ملاذ يتوقى فيه معاكسات الحظ ، وليس من المعقول أن نعتقد أنه ترك قرطبة باختياره ، وقد شهدت كل حياته ، وكل أمجاده - بأخرة من عمره - ويبدو أن حفيده يوحى لنا بذلك أيضا فى مقطع طويل ، يشكو فيه حظه الأعمى ، حيث أن هوى الكاتب والسياسى فى المصائب قد لحق بكل أفراد الأسرة فيما بعد .

واضح أن هذه السطور لا يمكن أن تكون محررة قبل سنة ١٠٤١ ، التى استقل فيها أبو الأحوص معن بالمرية ، والذى رفع إليه كتابه ، فماذا عن ابن برد منذ وفاة جده ٤١٨ = ١٠٢٧ حتى ذلك الحين ؟ نعثر فى المغرب على الخبر ، فإنه ترك قرطبة إلى المرية ، وعينه المعتصم وزيرا ، بعد ذلك ذهب إلى دانية ، إلى بلاط مجاهد^(١٦) ، ومع هذا يجب أن نأخذ هذا الخبر بكثير من التحفظ ؛ فإن المعتصم الذى خلف أباه فى سنة ١٠٥١ لم يبدأ يحكم بنفسه حتى موت عمه صمادح أى فى سنة ١٠٥٤^(١٧) ، وهو تاريخ تقريبي ، وربما كان بعد موت ابن برد نفسه فى سنة (٤٤٥ = ١٠٥٣ - ١٠٥٤)^(١٨) فضلا عن أن مجاهد أمير دانية توفى فى سنة ١٠٤٤ وعلى هذا لا بد من تصحيح الخبر الذى جاء فى المغرب ، فإنه من المؤكد أنه عاش فى بلاط واحد منهما ؛ لأن رسالة السيف والقلم رفعها إلى مجاهد ، ورفع «سر الأدب» إلى معن بن صمادح كما ثبت فى المؤلفين كليهما ، بيد أنه من الحتم - كما يقتضى التسلسل التاريخى - أنه كان فى دانية أولا .

لا ندرى فى أى سنة هجر قرطبة ، ربما كان فى التاريخ نفسه الذى هجرها فيه جده ، أى عندما كان صاحبنا حدثاً فى ذلك الحين ، ومن المحتمل أن يكون بعد ذلك بقليل حين ذهب إلى بلاط دانية فى حكم مجاهد سنة ١٠٠٩ - ١٠٤٤ ، ثم عاد بعد ذلك إلى قرطبة ، وقد حفظ لنا أبو الوليد الحميرى جزءاً من رسالة لابن برد عند قفوله من دانية ، قاصدا الوزير الكاتب أبا إسحق بن حمان الذى خرج معه إلى أرباض قرطبة متنزها^(١٩) ، لا ندرى فى أى تاريخ ، وقد رأينا أنه فى العام التالى ٤٢٧ حرر وثيقة البيعة لهشام الثانى المزيف .

نجهل المدة التى مكثها فى قرطبة ، ربما عاصر بنى جهور ، أو كان أيضاً فى خدمتهم بعد أن تمزقت آماله فى عودة الخلافة إلى استقرارها ، وقد كان هو - من المؤكد - شديد التحمس لها ، ومهما يكن من أمر - وإن كنا لا ندرى متى - فقد وجه إلى أبى الوليد محمد بن جهور (ربما قبل أن يصل إلى الحكم سنة ١٠٤٣) رسالته الشهيرة مدافعا فيها عن تفضيل الورد ضد ابن الرومى ، حفظها لنا الحميرى وهو بدوره مناصر لابن الرومى ، وقد كتب ردا يفضل فيه النرجس^(٢٠) .

وتى لحظة معينة بعد سنة ١٠٤١ يعلن معن بن صمبادح - على أية حال - استقلاله ، فيتوجه الشاعر إلى ألمرية ، وتبقى الفقر المريرة فى مقدمته لسر الأدب لغزا مبهما إلى حد بعيد ، هل كان الكاتب يتحدث عن موقفه عامة تجاه ذكريات ماضى أسرته المجيد فى قرطبة الخلافة ، أم كان يقصد اللحظة التى كان يكتب فيها ، اللهم إن لم يتعد ذلك أن يكون فكرة مطروقة تستهدف إبراز تعارض خذلانه ، ونقص ولع الجميع بالأدب ، إزاء كرم معن وحبه الشديد للأدب ، ولعله قد أمضى - فى الواقع - فترة ما صعبة حتى حظى برعاية الملك أبى الأحوص معن ، ونعلم أن أبا ابن برد عاش فى ألمرية ، ألم يكن هو - فى نهاية الأمر - الذى استدعاه ليقم إلى جانبه ؟

إزاء فقر المراجع الشديد فنحن ندور فى أرض الافتراضات المحضة ، لدينا آخر أنباء عن كاتبنا رواها الحميرى الذى رآه فى ألمرية بعد سنة ٤٤٠ = ١٠٤٨ - ١٠٤٩ ، عند مروره بهذه المدينة فى زيارته لأبى محمد على بن أحمد مؤلف «طوق الحمامة»^(٢١) ، وروى أن ابن برد توفى فى ألمرية سنة ٤٤٥ = ١٠٥٣ - ١٠٥٤ فى حياة والده ، وعلى

هذا لابد أن يكون قد مات قبل إتمام العقد الخامس من عمره ، لأنه هو نفسه قال : إنه كان في سن الصبا الأول حين مات جده سنة ٤١٨ = ١٠٢٧ .

شعر ابن برد الأصغر .

لم تبق لنا نماذج كثيرة من شعر ابن برد ، ولا تتفق والشهرة التي حظى بها شاعرا ، والمقطوعات التي أوردها ابن بسام في مؤلفه الضخم^(٢٢) نقل بعضها عنه غيره في منتخباتهم الأدبية ، فمؤلف «الذخيرة» لكي يبرز تضلعه هو يروق له أن يُشهر بسرقات ابن برد ، وسلخه لأشعار غيره من شعراء الأندلس : أبي العباس أحمد بن القاسم^(٢٣) ، وابن هاني^(٢٤) ، وكذلك من المشاركة : أبي نواس^(٢٥) ، وابن الرومي^(٢٦) ، وابن المعتز^(٢٧) ، والمتنبي^(٢٨) ، والمعري^(٢٩) .

أما ابن خاقان فقد قرظ مكانته الشعرية مستشهدا ببعض النماذج ، يقول عن شعره : «وشعره مثقف المباني ، مرهف كالحسام اليماني»^(٣٠) .

ليس بوسعنا الوقوف على المادة التي كانت لدى ابن خاقان حين ألف كتابه «مطمح الأنفس» وهو تكملة - كما هو معروف جيدا - لقلائد العقيان ، لكن فيما يمس ابن برد ، فإنه لا يكاد يستخدم مصدرا آخر غير «جنوة المقتبس» للحميدى ؛ لأن الفقر الأربع القصيرة التي يحتويها موجودة في «الذخيرة» ، اختار منها الحميدى ثلاثا ، ونسخها عنه الضبي^(٣١) ، أما الفقرة الرابعة فهي مأخوذة من الذخيرة ، نقلها حرفيا حتى مع كلمات ابن بسام في التقديم ، وقد أخذ المقرئ في «نفخ الطيب» الفصل الخاص بابن برد بتمامه عن ابن خاقان^(٣٢) .

أما الشعر الذي اختاره ابن سعيد في المغرب^(٣٣) من بيتين أو ثلاثة فهو مأخوذ كله - وباختصار دائما - من الذخيرة^(٣٤) ، وثلاث فقرات موجودة في المغرب نقلها ابن سعيد في كتابه الآخر «كتاب رايات المبرزين»^(٣٥) إحدى هذه الفقر اختارها المؤلف نفسه - في النهاية - لكتابه الآخر «عنوان المرقصات والمطربات»^(٣٦) ، ونقل الشقندي أيضاً في السياق مقطوعة من بيتين في مؤلفه «رسالة في فضل الأندلس»^(٣٧) .

نثر ابن برد الأصغر

إذا كان ابن برد شاعرا فليس مكانته ناثرا لدى نقاد الأدب الأندلسيين بأقل ، يراه الحجارى ناثرا أفضل من جده ابن برد الأكبر^(٣٨) ، وقد استحق شعره ونثره التقريظ الحار الذى نعت به ابن بسام فى كلمات دقيقة موجزة^(٣٩) ، يزهو ابن برد ذاته بمكانته كاتباً عربياً مجيداً ، يقدر ما له من نتاج أدبى تقديراً كبيراً سواء فى حقل الشعر أو النثر ، ولا يتحفظ فى بسط المسألة^(٤٠) وحسب ما صرح به فقد كتب السلطانيات والإخوانيات ، فكتابه «سر الأدب وسبك الذهب» يعتبر - حسب ما بقى منه - منتخبات من نثره : فصول متنوعة شديدة القصر فى التحميدات تشى بموضوع الكتابات ، وتتصدر موضوعاته سياسية وإخوانية .

وله كتابات أخرى وقفنا عليها ، وهى ذات طابع أدبى محض فرسالة التى نشرها الأستاذ بيريس PÉRÉS وحللها وجدت صدق لدى أبى الوليد الحميرى الذى عارضها برسالة أخرى ، وأدرج الرسالتين فى مختاراته البديعة عن الربيع والأزهار^(٤١) ، وفى هذه المختارات مقطوعة أخرى لابن برد أشرت إليها أنفا^(٤٢) ، فيها وصف جيد لنهر قرطبة وأرباضها جعلت الحميرى يعلق عليها بأنها قطعة نثر مقطوعة من السحر .

حاشا هاتين الرسالتين فقد وصل إلينا - للحظ الحسن - ثلاث آخر أولاهما بعنوان «الرسالة البديعة فى تفضيل أهب الشاء على ما يقترش من الوطاء»^(٤٣) .

أما الأخريان فسوف أترجمهما مدوستين ، وألحقهما بهذا الفصل ، أولاهما بعنوان «رسالة السيف والقلم» ، والأخرى موجهة إلى صديق له ، ولم يصل إلينا عنوان لها .

استرعى نظر النقاد الأندلسيين فحسب رسالته عن السيف والقلم من بين الثلاث الرسائل التى كانت غير منشورة حتى عهد غير بعيد ، وليس فى ذخيرة ابن بسام بالذات أى منها ، لكن أحد النساخ الأذكىاء - وشكره واجب - ضمها إلى الذخيرة - عازياً إهمال ابن بسام لها إلى سرعته حين صنف كتابه ، وهذه الرسائل موجودة - فقط - فى مخطوطتين من المخطوطات التى رجع إليها محققو الذخيرة ، لكنهم جعلوها ملحقة بالمجلد الثانى من القسم الأول^(٤٤) .

يروى ياقوت^(٤٥) وهو الخبر الوحيد الذى لدينا عن هذه النقطة أن ابن برد ألف أيضاً تفسيراً للقرآن الكريم ، ويذكر كتابين له : كتاب «التحصيل فى تفسير القرآن» ، وكتاب «التفصيل فى تفسير القرآن» ، بيد أنهما فيما يبدو عنوانان لكتاب واحد ؛ نظرا لتشابه العنوانين اللذين وردا عن مصادر مختلفة ، وهذا يفسر اختلاف الروايات ، وغريب - مع ذلك - أن الكتاب الأندلسيين ، وبخاصة أصحاب التراجم الذين قد اهتموا - بلا ريب - بهذا الموضوع قد صمتوا عن ذكر هذا الكتاب ، وعن جهد ابن برد مفسراً للقرآن^(٤٦) .

رسالة السيف والقلم

حسب ما يرويه ابن خاقان^(٤٧) فإن ابن برد برسالتة هذه كان أول من أوضح الفرق بين السيف والقلم ، وردد المقرئ عبارته^(٤٨) مستشهداً فى إسهاب بابن خاقان ، وكبرها نيكل عن المقرئ^(٤٩) ؛ لكن الإصابة الفاصلة فى ذلك أن العبارة للحميدى - وقد رأينا إلى أى حد أخذ عنه ابن خاقان فى ترجمته لابن برد - وقد ردها الضبى^(٥٠) ، بيد أن الحميدى - مع ذلك - كان أكثر احتراساً فى حكمه حيث أشار فقط إلى أن المجادلة بين السيف والقلم فى هذه الرسالة لإحراز الأولوية فحسب كان ابن برد فيها متقدماً على كل أدباء الأندلس (وهو أول من سبق إلى القول فى ذلك بالأندلس)^(٥١) .

هل عولج هذا الموضوع قبل ذلك فى المشرق ؟ أشار صديقى العزيز المصرى الدكتور محمود على مكى - الذى تفضل بقراءة ترجمتى لهذه الرسالة ، وأوضح لى بعض ما غمض منها - إلى أن هذه الرسالة من المحتمل أن تكون قد استلهمت الأبيات الأولى من قصيدة أبى تمام (بحر البسيط)^(*) التى يمدح فيها الخليفة المعتصم بالله بمناسبة فتحه عمورية ، ومستهلها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حصد الحصد بين الجند واللعب

ومع ذلك فقد كرر أبو تمام الفكرة فى البيت الثانى لكى يصل فى البيت الثالث إلى تفضيل السيف ، وهذا الاستهلال مستوحى فقط من الواقعة الحربية التى يتغنى بها قبل الولوج إلى موضوعه الرئيسى^(٥٢) .

(*) وهم الأستاذ جرانخا فى عزوه بيت أبى تمام إلى بحر الطويل ، وعدلناه فى المتن - المترجم .

تتردد فيما بعد فكرة تفضيل السيف على القلم - دون أن يكون لها نتائج ذات شأن - لدى الشاعر العظيم المتنبي فيما يقوله في ترجمة غرثيه غومث له :

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى المجد للسيف ليس المجد للقلم^(٥٣) .

وَمَا نرى فإن أبيات هذين الشاعرين وشعراء آخرين فى الشعر الأندلسي^(٥٤) تأتي عرضا ، دون أن تبلغ إلى أن تشكل موضوعا رئيسيا والشاعر نفسه هو الذى يتحدث متخذا موقفا محددا حين يبدأ نظمه .

أما رسالة ابن برد فإنها تشكل - على العكس - وحدة مرسومة بدقة : مقدمة تسوغ المجادلة القائمة بين القلم والسيف عن فضائل كل منهما ، والحوار المتميز بعدم الاعتدال بين هاتين الآلتين فى مجال الأدب والحرب ، يتولان فى النهاية إلى المصالحة ، كى يصل إلى مدح مجاهد الذى كان ذريعة أنشئت من أجله الرسالة^(٥٥) .

تنضوى رسالة السيف والقلم تحت ضرب من الأدب العربى معروف جيدا باسم المفاخرة ، كتبت على طريقة الحوار ، وتشبه أدب المجادلة فى أوروبا فى العصر الوسيط ، ومحاولة إعطاء هذه الرسالة - فضلا عن صعوبة هذا النثر المسجوع - صيغة إسبانية كان عذابا شديدا ، والرسالة كلها وبخاصة مقدمتها عبارة عن سيل عارم من المجازات المتقابلة ، ومترادفات متوالية فى استعارات من الصعوبة بمكان أن تترجم إلى لغة أخرى ، يكثر فيها كما هو طبيعى - الأفكار المطروقة مستعارة من تلك الأفكار المستعملة فى الشعر ، وفيها وصف الشعر مرات متعددة السيف والقلم ، وللأسف فإن موضوعا له مثل هذه الإمكانات الكثيرة ظل تقريبا موضوعا بيانيا محضا ، ونفتقر فى الرسالة ليس هنا لتأملات سرفنتس الرائعة فى دون كيخوتى الجزء الأول الفصل ٣٧ بل فى إطار موقف من الحياة ، نفتقد كل عظمة الكتاب الإسبان الذين عالجوا الموضوع^(٥٦) .

ولكون مجاهد الذى رفعت إليه الرسالة عاهلا كان شغفه بالحرب واضحا غير ملكه الطويل ، فإن ابن برد - رغما عنه - جعل الميزان بالقسط ؛ فتعليقاته الحارة المليئة بالحدة موزعة بالعدل بين بطلى المجادلة اللذين خلق عليهما الصفات الإنسانية ،

وتنتهى بالسلام ، مؤكدة أن شرط التفضيل بينهما يرتكز على أن الاثنين مفضلان لدى مجاهد ، لكن ابن برد - أديبا بميوله ، ومن سلالة أدباء - وجد من الحتمى أن يميل لتفضيل القلم ، وهكذا نرى أن شعوره بالندم جعله يكتب فى نهاية الأمر - لكى يبرىئ ذمته - مدحا للقلم ، طغى فيه الحب كل الحب لصديق صناعته ، الذى لا يفترق عنه ، ويكسر الوضع القائم الذى ترك فيه القلم والسيف ، وعاد - الآن - لا يسمح للسيف أن يرفع عقيرته منافحا عن نفسه ، وأض حانقا عليه ، فلم يخصص له حتى كلمة ود ، رغم أنه نعت - قبل ذلك - بنعوت مدح كثيرة وبعبارات تمجيد هائلة .

هذا التغنى بالقلم موجود فى الذخيرة^(٥٧) ، ضمه ابن سعيد بإيجاز - فى المغرب^(٥٨) ، ويؤكد ابن سعيد - بالمناسبة - أن الكتاب - الذى يشكل جزءا منه - لا بد أنه يقصد سر الأدب - رفعه إلى المعتصم (وليس لمعن)^(٥٩) ، وليس ثمة شيء أرق موقعا - ولعله غير صحيح - فى نفس أى ملك من ذلك الدفاع عن القلم ، (خادم الفكر) كما يلقيه ابن برد مثلما هو فى نفس المعتصم ، ملك مسالم ، محب للأدب ، حام له ، إلى أى مدى حددت كلمات ابن برد - ابن برد ذاته الذى كان بجانب الأمير الفتى وأثر فيه - سلوك هذا الملك العالم المتواضع فى إسبانيا الإسلامية ؟

فقر فى وصف القلم والمداد والكتاب

الكتاب من حلية الملائكة . قال الله تعالى : «كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون»^(٦٠) المداد كالبحر والقلم كالغواصر ، واللفظ كالجواهر ، والقرطاس كالسلك ، الدواة كالقلب ، والقلم كالخاطر ، والصحيفة كاللسان . العقل أب ، والعلم أم ، والفكر ابن ، والقلم خادم ، ما أعجب شأن القلم ، يشرب ظلمة ويلفظ نورا ! قد يكون قلم الكاتب أمضى من سنان المحارب ، القلم سهم تنفذ به المقاتل ، وشفرة تطبق بها المفاصل . إذا أخذ الكتاب شكتهم للكلام ، واخترطوا ظلمات الأقلام ، فكم من عرش يثل ، ودم يطل ، وجبار يذل ، وجيش يفل ، ولولا القلم ما عبثت كتائب ، ولا سریت مقانِب ، ولا انتضيت سيوف ، ولا ازدلفت صفوف . على غيث القلم يتفتح زهر الكلم ، ما أصوغ القلم لحلى الحكم ! قاتل الله القلم ، كيف يفل السنان وهو يكسر بالأسنان ! فساد القلم خدر فى أعضاء الخط . [قال ابن بسام : وهذا محلول من قول القائل حيث يقول :

من خط يوما يسرية فسدت أصاب أعضاء خطه خدر

ما كُتب على غرار رسالة السيف والقلم

لم يشر أحد من أدباء الأندلس الذين تناولوا هذه الرسالة أية إشارة إلى الرسائل التي من المحتمل أن تكون قد احتذت تلك الرسالة ، ما مدى الشهرة التي بلغتها رسالة ابن برد ؟

لا يبدو أنه حفظت منها نسخ كثيرة حاشا نسخة الذخيرة ، وقد قلنا أننا إنها لم تكن موجودة فيما حرره ابن بسام ، ربما تكون موجودة في مخطوطة أخرى في اسطمبول^(٦١) ، لكنني أعتقد - في وضوح - أنها حظيت بشهرة داخل الأدب العربي ، وربما خارجه .

وبما أن الموضوع يعنيني - وأفكر في العودة إليه - فإنني أشير فحسب إلى بعض الكتاب - لكن هناك غيرهم - الذين أثرت في مصنفاتهم رسالة السيف والقلم .

أول هؤلاء شاعر بلنسى معروف هو محمد بن غالب الرصافي (توفي ١٩ من رمضان سنة ٥٧٢ = ٢١ من مارس سنة ١١٧٧) كتب مقامة نقل إلينا ابن الخطيب فقرة منها في وصف القلم ، تناولتها بالدراسة في فصل آخر من هذا الكتاب^(٦٢) ، وبما أن المقامة لم تصلنا كاملة فإننا لا نسمح لأنفسنا بالمغامرة في الحكم على علاقتها برسالة ابن برد ، لكنني أستطيع أنؤكد - على الأقل التبعية التي لا ريب فيها في مدح القلم للكاتب نفسه والذي ترجمته سابقا .

ثاني هؤلاء هو المصري ابن نباتة (٦٨٧ - ٧١٦ = ١٢٨٧ - ١٣١٦) مؤلف (مغايرة بين السيف والقلم) توجد منها بعض مخطوطات ، ونشرت في المشرق ضمن مؤلفات قصيرة أخرى تنضوي تحت نوع المناظرات^(٦٣) وقد استطعت - في النهاية - أن أحصل على رسالة ابن نباتة هذه ، لكن قراءة عاجلة لها كانت حسبي لأقف على علاقتها الوثقى برسالة السيف والقلم لابن برد التي أخذ ابن نباتة حتى عنوانها .

ثالث هؤلاء هو أحد أدباء اليهود الإسبان المعروفين أقصد الحريزى (١١٦٥ - ١٢٢٥) المعروف بكتابه سفر تحكيمونى : Séfer Tahkemoni ، وقد عرف أيضاً - فيما يبدو - رسالة ابن برد ، ففي المقامة رقم ٤٠ من تحكيمونى استقبل هيمان خزرجى فى إحدى الأمسيات التى أتهكه فيها الألم صديقه العالم حبير هاكينى الذى - بعد الطعام وحمد الله - لام مضيقه لرميه قلمين تحطما عندما تهيأ لنسخ خطبته الرائعة ، وفى الحال جلس يكتب مدحا للقلم ، راويا حكاية ملك قديم ومحاورته مع وزرائه وقادته ، بعضهم ينافح عن القلم ، وآخرون يفضلون السيف ، وبالتالى تعاور القلم والسيف الحوار ، حتى ختمه القلم فى النهاية فى هذه المقامة أيضاً .

لم تسمع لى - للأسف - معرفتى باللغة العبرية بقراءة النص فى لغته الأصلية وهى شديدة الصعوبة ، لكنى استطعت من خلال ترجمتين لها إلى الألمانية إحداهما لكرافت^(٦٤) Krafft فى نثر مسجوع ، وفى شعر لكى يحافظ على بناء المقامة ، وثانيتها لدوكس^(٦٥) Dukes - وكلها فى النثر - استطعت أن أرى فضلا عن أن الهيكل مختلف - فى صلبهما - أن التعليقات المتناجزة فى وصف السيف والقلم سلبا وإيجابا تقفو من قريب طريقة ابن برد ، ومعروف جيدا أن معرفة الحريزى بلغة العرب وأدابهم معرفة ضخمة خولت له أن يترجم إلى العبرية أحد المصنفات الشديدة العسر وهى مقامات الحريزى .

فى سنة ١٩٥٢ نشر الأستاذ شيرمان : Schirman مقالا موجزا بالعبرية عن مصادر تحكيمونى للحريزى ، ولم يشر فيه إلى الموضوع الذى يعنينا^(٦٦) ، وبعد عشر سنوات حينما ظهرت الصفحات السابقة نشرت دراسة هامة حول Les Contes Rime's ليعقوب بن اليعازر الطليطلى^(٦٧) وهو كاتب إسباني يهودى فى القرن الثالث عشر مشفوعة بالتحليل ، إحدى هذه Mešálím الرابعة فى المجموعة موضوع عن القلم والسيف ، دخل صاحباهما فى مناقشة حول تفضيل أحدهما على الآخر ، وأسبقيته كى يصل فى النهاية ، ويعترف صاحب السيف بأن كليهما تابعان لله ، وإن كان الموجز الذى قدمه شيرمان يحتوى فقط على سطور قليلة^(٦٨) ، فإن هذه الرواية تبدو صدى لرسالة ابن برد مع ختامها بحل إلهى ، وبعد ذلك يشير شيرمان إلى أن المجادلة بين السيف والقلم موضوع يبدو له - بكل تأكيد - أنه ذو أصل عربى ، وكذلك الإطار ، وهو

يشير إشارة سريعة في هامش الفصل ٤٠ من تحكيمنى إلى أبراهام بيدريس Abra- ham Bedersi محيلاً إلى دراسته المعروفة عن الشعر العبرى فى إسبانيا وبروفانس^(٦٩) .

وقد نشر مؤخراً صديقى العزيز فرناندو ديات استبيان دراسة هامة عالج فيها مناظرة القلم والمقص للكاتب المشهور سيم توب دى كاريون Sem Tob De Carrion ، وهى عبارة عن دراسة مكثفة وعامة تأخذ فى الحسبان إلى حد كبير صفحاتى هذه فى الجزء العبرى ، حيث ترجم - ليس فحسب مناظرة سيم توب - بل أيضاً المقامة رقم ٤٠ من تحكيمنى التى أوجزتها سابقاً ، وهى دراسة أحيل إليها القارئ الذى تهمة القضية^(٧٠) .

رسالة النخلة

النخلة هى أحد الموضوعات القديمة إلى جانب الناقة والطلول الدوارس فى الأدب الجاهلى ، وعندما انتقلت الثقافة العربية من الصحراء إلى الحاضرة انتقلت معها الموضوعات التقليدية فى الشعر الجاهلى ، وليس لهذا علة - فى البداية - سوى الحنين ، وسطوة التقاليد الراسخة فى مجمل الأمر .

لا نعرف العنوان الأصلى لهذه الرسالة (النخلة) الذى سماها به ناشرو الذخيرة ، وهى رسالة مناسبات تدخل فى إطار الكتابات الصغيرة ذات الطابع المهرجاني فى الأدب العربى ، والتى نحتفظ منها بمجموعة كبيرة من تصنيفات أدباء الأندلس ، هى عبارة عن رسالة من ابن برد إلى صديقه أبى عبد الله ، يلومه فيها على أنانيته ويظهـر ؛ لأنه لم يدعه إلى الأكل من جنى نخلته .

يبسط الكاتب القول فى هذا الموضوع الذى ليس سوى تعلية للكتابة - المساة الضخمة فى الأدب العربى الكلاسيكى اللغة الجميلة ، وفقر المضمون باستثناء كبار الأدباء - مستعرضاً قدرته ، وتضلعه فى رشاقة نثره المسجوع .

رسالة كهذه حين تُعرى من ثوبها الأصلى ، وينقلها إلى لغة أخرى غير حاذق لا تكاد تبدو - كما يقول العرب - إلا كلاماً فارغاً لدى غير المستعربين ، هل فى وسع

حزن الكاتب أن يسوغ كل هذه الصفحات لكونه لم يذق جنى النخلة [غريبة عن وطننا] .
يقول هذا ليناقض نفسه - فيما بعد - حينما يتحدث عن «التمر» المعروض للبيع في
الأسواق !

ليس مسوغاً بمنتهى الوضوح ، وحتى من المحتمل أن تكون هذه التعللة الواهية
هى فحسب مجرد اختراع ، فإنه يتأتى معها أن تكون مبالغة ممقوتة ، لكن ابن برد -
مثله فى ذلك مثل أغلبية الكتاب العرب فى كل العصور - كان يشعر بالحاجة إلى
الكتابة ليفرغ على الورق العبارات البديعة ، والكلمات المهجورة ، والاستعارات المجنحة ،
والتعبيرات الذكية ، هذا هو المسوغ الأكبر .

سوف يكتب أيضاً - فيما بعد - عن نخلة غرناطية أديب أندلسى هو أبو الحسن
الجزامى النباهى [مات فى نهاية القرن الرابع عشر] مقامة وصلت إلينا بعنوان "المقامة
النخلية" وأتبعها المؤلف بتعليق مسهب^(٧١) .

عن النخلة فى الأندلس كتب منذ سنوات الأستاذ هنرى بيريس دراسة جيدة جمع
فيها كل النصوص الأدبية والجغرافية التى استطاع الوقوف عليها^(٧٢) ، وعليه وفقاً
لمعلوماته الواسعة بالأدب العربى أن يضم إليها رسالة ابن برد هذه التى كانت
مخطوطة حينذاك على هذه الدراسة أحيل القارئ ؛ كيلا أبسط القول فى موضوع
طرقه العلامة المستشرق الفرنسى بأستاذية معهودة فيه .

(*) [ما بين معقوفتين ليس فى الترجمة الإسبانية وقد رأينا نقله - المترجم .

هوامش

- (١) انظر الذخيرة ٢/١ ص ١٨ - ٥٢ .
- (٢) مطمح الأنفس ص ٢٤ ، ٢٥ .
- (٣) المغرب ج ١ ص ٨٦ - ٩١ .
- (٤) ابن بشكوال - الصلة . ص ٤٠ .
- (٥) الذخيرة ١/١ ص ٨٤ .
- (٦) ابن الأبار - التكملة ج ١ ص ١٢٤ . ترجمة رقم ٤٢٥ . خبر مأخوذ بعضه عن ابن حيان . وهذه الترجمة أخذها ابن عبد الملك في الذيل والتكملة ج ٥ ص ٥٩٢ ترجمة رقم ١١٧١ .
- (٧) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٢ .
- (٨) الذخيرة ١/١ ص ٩٧ وما بعدها .
- (٩) الذخيرة ٢/١ ص ٥١ .
- (١٠) الذخيرة ١/١ ص ٥٦١ ، وفي نفح الطيب مع بعض اختلاف ج ٢ ص ٤١٣ ، وحلل النص هنري بيريس في كتابه عن الشعر الأندلسي ص ٨٦ ، ويبدو لي غير مرضٍ .
- (١١) المغرب ج ١ - ص ٨٥ .
- (١٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ .
- (١٣) أ - ر . نيكل ، الشعر الأندلسي . ص ١٢١ - ١٢٢ . A. R. Nykl, Hispano - Arabic Poetry. pp. 121 - 122..
- (١٤) هنري بيريس ، الشعر ، ص ٤ ، وهامش ١ . وراجع الذخيرة ١/١ ص ٨٤ ، ٨٦ . وانظر ليفي بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية . المجلد الرابع من تاريخ إسبانيا بإشراف ر . مينندث بيدال ، مدريد (١٩٥٩) ص ٤٥٦ ، ٤٨٨ . هامش ٣ .
- (١٥) هنري بيريس ص ٩٤ ، وقارنه بالذخيرة ١/١ ص ٩٤ .
- (١٦) المغرب ج ١ ص ٩١ .

- (١٧) ر . دوزى . بحوث^٣ : Recherches^٣ . ج ١ ص ٢٤٢ .
- (١٨) هذا التاريخ يشير - كما قلنا - إلى ترجمة أبيه في التكملة لابن الأبار . رقم ٤٢٥ .
- (١٩) راجع . أبو الوليد الحميرى . البديع في وصف الربيع . المنشور بعناية هنرى بيريس - الرباط عام ١٩٤٠ ص ٢٢ .
- (٢٠) المرجع السابق ، ص ٥٢ - ٥٨ . ورد أبى الوليد فى ص ٥٨ - ٦٧ ، وانظر أيضاً حول هذا الموضوع المشهور . بيريس عن الشعر الأندلسى ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
- (٢١) قسارن . الحميدى . الجنوة ص ١٠٧ ، ونقله الضبى فى البغية ص ١٥٣ ، ويسميه - فى الواقع - أبا محمد بن حزم .
- (٢٢) الذخيرة ٢/١ ص ٣٧ - ٥٢ .
- (٢٣) الذخيرة ٢/١ ص ٢٨ .
- (٢٤) الذخيرة ٢/١ ص ٢٩ .
- (٢٥) الذخيرة ٢/١ ص ٢٨ - ٢٩ .
- (٢٦) الذخيرة ٢/١ ص ٣٩ - ٥٠ .
- (٢٧) الذخيرة ٢/١ ص ٥٠ .
- (٢٨) الذخيرة ٢/١ ص ٤١ .
- (٢٩) الذخيرة ٢/١ ص ٥٠ .
- (٣٠) مطمح الأنفس ص ٢٤ .
- (٣١) راجع المطمح ص ٢٤ ، ٢٥ ، والجنوة ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، والبغية ص ١٥٣ ، ١٥٤ والذخيرة ٢/١ ص ٣٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ .
- (٣٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .
- (٣٣) المغرب ج ١ ص ٩٠ ، ٩١ .
- (٣٤) راجع الذخيرة ٢/١ ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ .
- (٣٥) النص العربى ص ٤١ ، وترجمته الإسبانية ص ١٨٠ .
- (٣٦) عنوان المرقصات والمطريات . طبعة وترجمة عبد القادر مهداد - الجزائر عام ١٩٤٩ ص ٢٢ ، ٢٣ .
- (٣٧) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٣ ، راجع فضل الإسلام الإشباني . ترجمة إميليو غوثيه غومث . مدريد ، غرناطة عام ١٩٢٤ ص ٦٥ .

- (٣٨) المغرب ج ١ ص ٩١ .
- (٣٩) قارنه بما يأتي ص ٥٤ .
- (٤٠) انظر خاصة الملحق ص ٥٥ ، ٥٦ .
- (٤١) انظر ما سبق ص ١١ .
- (٤٢) انظر ما سبق ص ١٠ ، ١١ .
- (٤٣) راجع الذخيرة ٢/١ ص ٥٢ هامش ١ .
- (٤٤) الذخيرة ٢/١ ص ٤٣٥ - ٤٤١ .
- (٤٥) معجم الأدباء ج ٥ ص ٤١ - ٤٣ .
- (٤٦) ينبغي أن يضاف إلى المصادر المدروسة تلك المصادر التي ذكرها هنري بيريس في «الشعر في فاس على عهد المرابطين والموحدين» في مجلة هسبريس عدد ١٧ عام ١٩٣٤ هامش ١ ص ١٥ ، ولم تقل تلك المصادر شيئاً جديداً . لم أستطع استشارة المخطوطات ولا كتاب أحمد ضيف "بلاغه العرب في الأندلس" . القاهرة عام ١٣٤٢ هـ .
- (٤٧) مطمح الأنفس ص ٢٤ .
- (٤٨) نفح الطيب ج ٢ ص ٣٦٧ .
- (49) Hispano - Arabic Poetry. p 122.
- (٥٠) البغية ص ١٥٣ .
- (٥١) الجذوة ص ١٠٧ .
- (٥٢) ديوان أبي تمام بشرح التبريزي . تحقيق محمد عبده مزام . القاهرة سنة ١٩٥١ . ج ١ ص ٤٥ ، وعن عمورية المعروفة قديماً باسم Amorium. راجع دائرة المعارف الإسلامية ط - ٢ ج ١ ص ٤٦٢ . مقال (م . كانارد) .
- (٥٣) إميليو غوثي غوث . خمسة شعراء مسلمون ص ٥٧ ، وراجع ص ٤٧ ، ٤٩ التي يشير فيها الكاتب إلى ازدواجية السيف والقلم في شعر المتنبي . (ترجم هذا الكتاب ترجمة جيدة إلى العربية صديقي العلامة الدكتور الطاهر مكي - المترجم) .
- (٥٤) انظر عن هذه القضية : الشعر الأندلسي لإميليو غوثي غوث . حول خسوف الشعر في إشبيلية على عهد المرابطين في مجلة الأندلس عدد ١٠ سنة ١٩٤٥ ص ٣١٨ حيث يشير إلى ابن برد ، وكذلك هنري بيريس في كتابه الشعر الأندلسي ص ٤٣٦ ، ٤٣٨ .
- (٥٥) لم تنته رسالة ابن برد بانتصار القلم كما يقول بيريس في «الشعر في فاس ...» ص ١٥ المذكور سابقاً في هامش ٤٦ .

(٥٦) لم ينته الموضوع . لكن من المفيد - من حيث البداية - الرجوع إلى مقال غونثالو مينندث بيدال «الأسلحة والآداب» في مجلة الاسكوريال عدد ٤٢ سنة ١٩٤٤ ص ٢٢٧ ، ٢٤٤ .

(٥٧) الذخيرة ٢/١ ص ٢٨ .

(٥٨) المغرب ج ١ ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٥٩) المرجع السابق ج ١ ص ٨٦ .

(٦٠) القرآن الكريم سورة الانفطار . آية ١١ ، ١٢ .

(٦١) من بين عناوين المؤلفات التي أجهل مسقط رأس كتابها والعصر الذي عاشوا فيه ، والذين يوجدون في ملحق G.A.L ، يذكر بروكلمان مفاخرات السيف والقلم لحمد بن أحمد الكاتب الأندلسي (قارن ملحق ج ٢ ص ٩١٠ رقم ٥٢ والتي ينبغي بلا ريب أن تكون الرسالة التي نتحدث عنها والتي اعتور عنوانها وبخاصة اسم كاتبها التغيرات الشرقية المعروفة ويجب أن نتعود عليها حينما يتعلق الأمر بمؤلفات ، وكتاب أندلسيين .

(٦٢) سياي في الفصل الخامس ص ١٢١ - ١٢٧ .

(٦٣) مناظرات في الأدب . طبعة عزت العطار - القاهرة ١٩٣٢ ، وما كتبه ابن نباتة يستغرق من ص ٥ - ١٩ .

(64) Vlezigste Mekame. Schwert Und Feder Sindlm Steite, - Wer Den Grössten Nutzen Bereit, En Literaturblatt Des Orients, 1840, Heft 13, pp.196 - 198., Heft 14, pp 213 - 215 .

(65) Feder Und Schwert Streiten, Wer Denmenschen Und Ibrén Kriegen Mehr Bedürfniss Ist, En Leopold Dukes, Ehrensäulen Und Denksteine Zu Einem Künftigen Pantheon Hebräls Cher Dichter Und Dichtungen, Wien 1873, pp 92 - 94 .

وأشكر الأنسة اورسولا جارتير اهتمامها وعنايتها الكبيرة أن أمدتنا بصورة من هاتين الترجمتين .

(66) H. Schirman, L - Heqer Mqorotau Šel Sefer Ga - Tahkmonil - Yhada Al - Hartzt, En Tarbliz, 23, 3 - 4 (1952) pp 198 - 202 .

كل هذه الفقرة حتى الاستشهاد الذي يليها أضفته إلى هذه الصفحات التي كانت قد ظهرت من قبل في سنة ١٩٦٠ .

(67) En Études D'orientalisme Sédlees Àla Mémoire De Lévi - Proven çal, Paris 1962, 11 , 285 - 297 .

(٦٨) المرجع السابق ص ٢٨٨ .

(٦٩) المرجع السابق ص ٢٩٣ وهامش ١٢ ، وعن ابراهام بيرس (القرن : ١٣) وعلاقته بالموضوع انظر المؤلف الذي أذكره في الهامش التالي ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٧٠) دياث استيبان «مناظرة القلم والمقص» لسيم توب أربوتيل ، ودون سانتو دي كاريون . فى مجلة جامعة مدريد . مجلد ١٨ . عدد ٦٩ (١٩٦٩) ص ٦١ - ١٠٢ .

(٧١) عنوان الكتاب . مقامة وتعليق هو : كتاب البصائر والأبصار محفوظ فى مخطوطين فى مكتبة الاسكوريال ، ولدى مقامة البنا هى مترجمة ونشرها ماركوس جوزيف مولر

Beiträge Zur Geschichte Araber, München 1866, pp. 139 - 159 .

لكنى تركتها دون نشر ، لأن الدكتور مكى أخبرنى أن لديه مخطوطا آخر مغربيا ويفكر فى نشر طبعة جديدة وكاملة له .

(٧٢) هنرى بيريس . النحلة فى إسبانيا الإسلامية

Notes D'après Les Textes Arabes, En Mélanges Gaudafroy - Demombyens, Calro, 1935 - 1945.
pp. 225 - 239 .

رسالة السيف والقلم

رسالة فى السيف والقلم وكتبها إلى الموفق أبى الجيش مجاهد

يقول فيها : أما بعد حمد الله بجميع محامده وآلائه ، والصلاة على خاتم أنبيائه ، فإن التسابق من جوادين سبقا فى حلبة ، وقضيبين نسقا فى تربة ، والتحاسد من نجمين أنارا فى أفق ، وسهمين صارا على نسق ، والتفاخر من زهرتين تفتحتا من كمامة ، وبارقتين توضحتا من غمامة ، لأحمد وجوه الحسد ، وإن كان مذموما مع الأبد ، وربما امتد أحد الجوادين بخطوة ، أو خص أحد القضيبين بربوة ، أو كان أحد السهمين أنفذ مصيرا ، أو راح أحد النجمين أضوا تنويرا ، أو غدت إحدى الزهرتين أندى غضارة ، أو أمسست إحدى البارقتين أسنى إنارة ، فالمقصر يرتقب تقدما ، وتقارب الخالتين فى المجانسة ، يشب نار المنافسة ، وإن حال بينهما قدح النقاد ، وقبح تحاسد الأضداد .

وإن السيف والقلم لما كانا مصباحين يهديان إلى القصد ، من بات يسرى إلى المجد ، وسلمين يلحقان بالكواكب ، من ارتقى لساميات المراتب ، وطريقين يشرعان نهج الشرف لم تقرر إليه ، ويجمعان شمل الفخر لم تأشب عليه ، ووسيلتين يرشفان العلى فم عاشقها ، ويبسطان فى وصال المنى يدا وامقها ، وشفيعين لا يؤخر تشفيعهما ، ومجمعين لا يفرق تجميعهما ، جرأ أذيال الخيلاء تفاخرا ، وأشما بأنف الكبرياء تنافرا ، وادعى كل واحد منهما أن الفوز لقدحه ، وأن الورى لقدحه ، وأن الدر من أصدافه ، وأن البكر من زفافه ، وأن البناء من تشييده ، وأن الملاء من تعضيده ، وأن كباء الثناء موقوف على مجامره ، وأن خطيب الفخر محبوس على منابره ، وأن حلل المائر من نسيجه ، وأن أفراد المفاخر من تزويجه ، وحين كشف الجدل قناعه ، ومبد الخصام ذراعاه ، وهز الإباء من عطفه ، وأشم الأنف من أنفه ، قاما يتباريان فى المقام ، ويتساجلان فى الخصال ، ويصف كل واحد منهما جلال نفسه ، ويذكر فضل ما اجتنى من غرسه ، ويبأى بمنقبة نافرت السها ، ومرتبة رىض خيسها ، ورياسة من ذوائب الجوزاء صادها ، ونباهة فى صهوة العيوق أفادها .

فقال القلم : ها ! الله أكبر ! أيها المسائل بدءا يعقل لسانك ويحير جنانك وبديهة تملأ سمعك ، وتضيق ذرعك ، خير الأقوال الحق ، وأحمد السجايا الصدق ، والأفضل من فضل الله عز وجل في تنزيله ، مقسما به لرسوله ، فقال ، : « ن . والقلم وما يسطرون » ، وقال : « اقرأ وريك الأكرم الذى علم بالقلم » فجل من مقسم ، وعز من قسم ! فما ترانى وقد حلت بين جفن الإيمان وناظره ، وجلت بين قلب الإنسان وخاطره ؟ لقد أخذت الفضل برمته ، وقدت الفخر بأزمته .

فقال السيف : عدنا من ذكر الشريعة إلى ذكر الطبيعة ، ومن وصف الملة إلى وصف الخصلة ، لا أسير ولكن أعلن ، قيمة كل امرئ ما يحسن ، إن عاتقا حمل نجادى لسعيد ، وإن عضدا بات وسادى لسديد ، وإن فتى اتخذنى دليله لمهدى ، وإن أمرا صيرنى رسيه لمفدى ، يشق منى الدجى بمصباح ، ويقابل كل باب بمفتاح ، وأفصح والبطل قد خرس ، وأبتسم والأجل قد عبس ، أقضى فلا أنصف ، وأمضى فلا أصرف ، أزرى بالوفاء ، وأهتك اللأمة هتك الرداء .

فقال القلم : نعوذ بالله من الحور بعد الكور ، وقبحا للتحلى بالجور ! و [بياض بالأصل] تسود ما بيض الصفاء ، وتكور ما أخلص الإخاء ، وتؤكد أسباب الفتن ، الحق أبلج ، والباطل لجلج إن ... [بياض بالأصل] فإن فى قدحها للمأمونة الطائر ، محمودة الباطن والظاهر ، أحكم فأعدل ، وأشهد فأقبل ، وترحل عزماتى شرقا وغربا ولا أرحل ، أعد فأفى ، وأستكفى فأكفى ، أحلب الفنى من ضروعه ، وأجتتى الندى من فروعه ، وهل أنا إلا قطب تدور عليه الدول ، وجواد شأوه يدرك الأمل ، شفيع كل ملك إلى مطالبه ، ووسيلته إلى مكاسبه ، وشاهد نجواه قبل كل شاهد ، ووارد معناه قبل كل وارد .

فقال السيف : يالله ! استنتت النصال حتى القرعى ! ورب صلف تحت الراعدة ! لقد تحاول امتدادا بباع قصيرة ، وانتفاضا بجناح كسيرة ، أمستعرب والفلس ثمنك ، ومستجلب وكل بقعة وطنك ؟ جسم ودمع بار تحفى فتنعل برىا ، حتى يعود جسمك فيئا ، إن الملوك لتبادر إلى دركى ولتتحاسد فى ملكى ، ولتتوارثنى على النسب ، ولتغالى فى على الحسب ، فتكللنى المرجان وتنعلنى القيان ، وتلحقنى بخلل كحلل ، وجمائل كخمائل ، حتى أبرز براز الهندى يوم الجلاء والروض غب السماء .

فقال القلم : من ساء سمعا ساء إجابة . أستعيذ بالله من خطل أرعيت فيه
سوامك ، وزلل افنتحت به كلامك ! إن ازدراك بتمكن وجداني ، وبخس أثماني ،
لنقص في طباعك ، وقصر في باعك ، ألا وإن الذهب معدنه في العفر ، وهو أنفس
الجواهر ، والنار مكنها في الحجر وهي إحدى العناصر ، وإن الماء وهو الحياة أكثر
المعاش وجدانا ، وأقلها أثمانا ، وقلما تلتفي الأعلاق النفيسة ، إلا في الأمكنة
الخشيسة ، وأما التعري ، فغنينا بالجمال عن جر الأذيال ، وهل يصلح الدر حتى
يطرح صدغه ، أو يبتهج الإغريض حتى يشذب سعفه ، أم يتلأل الصبح حتى تتجلى
سدفه ؟ إن الضحا للرجال معروف ، وإن الخفر على النساء موقوف ، ولولا جلاء
الصياقل صدأك لأسرعت ذهابا ، وعدت مع التراب ترابا .

فقال السيف : جعجة رحي لا يتبعها طحن ، وجلجلة رعد لا يليها مزن ، في وجه
مالك تعرف أمرته ، وجه لئيم ، وجسم سقيم ، وغرب يفل ، ودم يطل ، ودموع سجام ،
كأنهن سخام ، ورأس لم يتقلقل فيه لب ، وجوف لم يتخضخض فيه قلب ، أوحش من
جوف العير يشهد عليه الجور بقلة الخير ، فهب من نومك ، وأفطر من صومك ، وتحكم
بطرف نظار ، في جسم ماء وحلة نار ، إن انتضاني جاهل ، أوهمته أنى سائل ، ففر
خوفا أن يفرق ، وولى حذرا أن يحترق ، في بحر زبده الشعل ، ويرق سحابه الخل ،
لو انتضيت والشمس كاسفة لم ينظر وقت تجليها ، أو السنون مجدبة أيقن بالحيا راعيها ،
قد خد الفرند في صفحتي أمثال صفار الخيلان ، في البيض من صفحات الحسان ،
أكرع يوم الوغى في لبة البطل ، فأعود كالخد كسي صبيغ الخجل ، كأنما اشتملت
بالشفيق ، أو شربت ماء العقيق .

فقال القلم : إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا ، ما كل بيضاء شحمة ، ولا كل
سوداء تمرّة ! إن ماءك السائل لجامد ، وإن جرمك الملهب لبارد ، ولن يفرق فيه حتى
تكرع في السباسب العطاش ، وإن يحترق به حتى يقع في نار الحباحب الفراش ،
يسفر البلاء لك عن قضيب عاج ولسان سراج ، وقدح ورق جلل بالعقيان ، وحلة نرجس
فوق جسم أقحوان ، لليل في فوديه لطخ ، وللمسك في صدغيه نضخ ، أنجلي عن
المهارق ، انجلاء الغمام عن الحقائق ، وأرقم في بطون الصحف ، ما لا يرقم
الربيع في الروضة الأنف ، من منمنم يختال بين مسهم ، ومعضد فوق مسرد .

ولما كثر تعارضهما ، وطال تراوضهما ، وقابل كل واحد منهما بجمعه جمعا ،
 وقرع بنبعه نبعا ، ولم ينتن أحد الصارمين كهاما ، ولم يرتد أحد العارضين جهاما ،
 تبادر إلى السلم يعقدان لواءهما ، وإلى المؤالفة يردان ماعها ، وقالوا : إن من القبيح أن
 تتشتت أهواؤنا ، وتتفرق آراؤنا ، وقد جمعنا الله في المآلف الكريم ، وأحلنا بمحل
 غير ذميم ، بأعلى يد نالت آمالها ، ووافقت المطالب في أوطانها ، ولم تقابل بابا مغلقا
 إلا قرعته ، ولا حجابا مضلعا إلا رفعتة ، ولا جدا عاثرا إلا أقالته ، ولا أملا غائرا
 إلا أسالته ، تلك يد الموفق أبى الجيش مولى المعالي ومسترقها ، ومستوجب المكارم
 ومستحقها ، العاقد لواء المجد بذوائب السماك ، والمطل بفخره على الأفلاك ، والمقدم
 إذا أحجمت الأبطال ، والضاحك إذا بكت الأجال ، والسارى إلى العلياء إذا أدلج
 الكرام ، والمسهد في الآراء إذا هجد الأنام ، والطالب ثار العديم بجوده ، والمشفع
 النبيل بمزيدة ، والمسعف لمعاده ، والمخلف لإبعاده ، والمجرى في ذاويات الهم ماء ،
 والمطلع في ظلمات الآمال سناء ، فإذ قد عدل بيننا بحكمه ، يوم وغاه ويوم سلمه ،
 فجاوز بك حد المسألة ، وجاوز بى حد المشاركة ، ولم يثتك حتى بلغ مناه ، ولم يثنى
 حتى وافق هواه ، ولم يقصر بى عن غاية بلغك إليها ، ولم يقدمك إلى مرتبة أخرنى عنها ،
 فأجمل رداء نرتديه ، وأفضل حذاء نحتديه ، وأهدى سبيل نقصده ، وأصفى منهل نرده ،
 مؤالفة نجرر ذيلها ، ونميل ميلها ، ومعاشرة نتجانى ثمارها ، ونتعاطى عقارها ،
 وذنوب نخلى أوطانها ، ونهدم بنيانها ، ودمن نعفى دمنها ، ونرد فى أجفانها وسننها .

ثم قال القلم : إن مما نبرم به عقدنا وننظم عقدنا ، ويستظهر به بعضنا على
 بعض ، إن حالت حال ، وكان للدهر انتقال ، أن نخط كتابا مصيبا ، يكون لنا منابا
 وعلينا رقيبا ، فقد يدب الدهر بعقاربه ، بين المرء وأقاربه ، ويسعى بالنميمة ، بين
 الفرعين فى الأورمة .

فقال السيف : أنت والبيان ، وحربا والميدان ، فقال القلم : إن النثر فى ذلك مثل
 يسير ، وإن الشعر فى ذلك خطير ، وإنه لشدو الحادى ، وزاد الرائح والغادى ،
 واختاره على النثر تنويها بالذكر ، فقال :

قد آن للسيف ألا يفضل القلما	مذ سخرا لفتى حاز العلى بهما
إن يجتنى المجد غضا من كمائمه	فإنما يجتنى من بعض خرسهما

ما جاريا أملا أو وافيا أمدا
سقاها الدهر من تشتيته جرعا
حتى إذا نام طرف الجهل وانتبهت
راحا بكف أبي الجيش التي خلقت
فعاد حبليهما المنبت منعقدا
يا أيها الملك السامي بهمته
لولا طلابي غريب المدح فيك لما
وإنما كان تعريضا كشفت به

إلا وكانت خصال السبق بينهما
ولليالي صروف تقطع الرحما
عين النهى قرعا سنيهما ندما
غمامة كل حين تمطر النعما
وراح شملهما المنفض ملتئما
إلى سماء علا قد أعيت الهمما
وصفت قبل علاك السيف والقلما
من البلاغة وجها كان ملتئما .

رسالته فى النخلة

أما بعد : جعلك الله من المؤثرين على أنفسهم ، والموقنين شحها ، والمنجزين لمواعيدهم والمعطين صدقها ، فقد علمت ما سلف لنا فى العام الفارط من عتابك ولبسنا شكته من ملامك ، لما كتمتنا صرام النخلة التى هى بأرضنا إحدى الغرائب ، وفريدة العجائب ، هربا من أن نلزمك الإسهام فى رطبها ، وحرصا على تمام لذة الاستبداد بها ، وقلت ، وقد سألناك من جناها قليلا ، ورجونا أن تنيلنا منها ولو قليلا : « لوعلمت أن لكم به هذا الكلف ، وإليه هذا النزاع ، لأمسكته عليكم ، وجعلت حكم جذاذه إليكم ، ولكنها إن شاء الله فى العام الأنف غلتكم ، عتاد نفيس لكم ، وذخر حبيس عليكم » . فأما نحن فرسمنا تلك العدة فى سويدات قلوبنا ، ووكنا بها حفظة خواطرنا ، وأما أنت فهللت عليها التراب ، وأسلمتها إلى يد البلى حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وازينت زينتها ، وبلغت غايتها ، وأشبع القمر صبغها ، وأحكمت الشمس نضجها ، دببت إليها الضراء بصرامك ، ومشيت نحوها الخمر بحرابك ، على حين نام السمار ، وغفلت الجارة والجار ، وأبت بها إيابة الأسد بفريسته ، وتحكمت فيها تحكمه فى عنيزته ، ولما رأينا على ذلك طلائع الرطب فى الأسواق ، والجنى من بكر النخيل على الأطباق ، عزت جوانحنا ذكر العدة ، وقلقل أحشاعنا حذر الخيبة ، فركضنا الهماليج إلى حرمتك ، وجعلنا نشدد طمعا فى لقائك ، فلما غشينى الجهة تلقانا فتى وضاح الجبين ، أخذ بالعيون ، فى وجهه للأدب شاهد ، وبين عينيه فى الظرف رائد ، فقال : « بأبى أنتم ، وعين الله تكلؤكم حيث كنتم ! أراكم ناشدى ضالة أو مستدركى سيب فانت ، فاسألوا فرېما سقطتم على الخبير ، وشاوروا فالمشورة تفتح غلق الأمور » . فقلنا له « بأبائنا أنت ! إنا لنرجو بيمن لقياك ظفرا بالمطلب ، ونجحا فى المذهب . جارك وصديقنا الذى نحن تلقاء منزله ، وفى حاشية محله ، وعدنا منذ عام بأن يسهم لنا فى جنى نخلة لديه ، لم تتفقاً تربة هجر عن مثلها ، ولا أوت قمارى بصرى إلى شكلها ، فجبنا لنأكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين » .

قال الفتى : «يا إخوانى فى الخيبة ، وشركائى فى فوت الأمل ! أنا ساكن المحلة التى منبت هذه النخلة فى ساحتها ، وقد صرمها منذ خمسة عشر يوما ، ولقد كنت قبل صرامها أمنحها نظر العاشق إلى المعشوق ، فإذا رأت الطير وهى على سعفها ما أوصل إليها من لحظاتي ، وأتابع عليها من زفراتى ، رمتنى بأفراد من رطبها أحلى من شفاء العذارى ، وأنا اليوم أبكى منها ريعا خاليا ، وبعد ثلاثة أغدو عنها جاليا » .

فما هذا الخيس أبا عبد الله بعهدك ، وما هذه الربرة فى وجه وعدك ، وما هذا الاستئثار على إخوانك المؤثرين لك ؟ إن كنت لم تحضرنا يوم صرامها لنحتكم على قولك فيها ، ونأخذ معك بأجزل الأقسام منها ، فالعذر لا يضيق عنك ، واللوم لا ينبسط إليك . هات مما ذخرت له لساعات تفكهك ، أسهم لنا فيما أعتدته ليوم نوروزك . لم يكن جناها بنزر فيتقسمه الإهداء ، ولا بدون فتطيب عنه النفس ، ولا تخشى منا ما أفسد به ابن الزبير جنده ، حين قال لهم : «أكلتم تمرى وعصيتم أمرى» ، إذا نحن أكلنا منها فمرنا فناصرنا عنك أعداءك برا وبحرا ، ولا نعص لك أمرا ، جعلنا الله فداك ! نحن عصابة نتحلى بأدب ، وننتمى إلى حفظ غريب ، وصياغة قريض ، وربما لم تصدق فى هذا الطريق مضامنا ، ولا قبلت يقينا عنا ، فأردنا أن نصف لك شيئا من كلام العرب فى النخل وبدء نباته ، والتمر وتلون حالاته ، فإن سرك ما جئنا به ، وراقك ما أفضنا فيه ، جعلت جوائزنا تمرا ، وكان ذلك لنا أجرا !

نعم ، تقول العرب لصغار النخل : الجثيث ، والودى ، والهراء ، والغسيل ، والأشياء ، والكافور ، والضمد ، والإغريض ، فإذا انعقد سمته السياب ، فإذا اخضر قبل أن يشتد سمته الجدال ، فإذا عظم فهو البسر ، فإذا صارت فيه طرائق فهو المخطم ، فإذا تغيرت البسرة إلى الحمرة فهى شقحة ، فإذا ظهرت الحمرة فهى الزهو وقد أزهى ، فإذا بدت فيه ندبة من الإרטاب قيل قد وكت وهى بسرة موكتة ، فإذا أدرك حمل النخلة فهو الإناض ، فإذا أتاها التوكيت من قبل ذنبها فهى مذنبه فإذا بلغ الإרטاب نصفها فهو المخرع والمجزع لغتان ، فإذا بلغ ثلثها فهى حلقانة ، فإذا جرى الإרטاب فيها كلها فهى منسبته .

فيا أبا عبد الله أمجدنا رطبنا ، نمجدك خطبا ، هذا قليل من كثير ، وثماد من بحور ، وليس يطيب وصفنا نظما ونثرا لمناقب هذه النخلة إلا بعد اختيارنا منها ، وفوز

قدا ضابها ، وإذا أنت فعلت فكلفنا فيها خاصة ما تكلفه عمرو بن بحر الجاحظ في نخل الدنيا عامة نأثك به ، ونربى فيه عليه ، ولعلك تحب أن تسمع شيئا في منظوم الكلام في النخل يذيب من جمودك ، ويولد عقيم جودك ، فالمنظوم خداع بحسنه ، مستميل بطنه ، أنشد الأصمعي لأبى الغفار الرياحي :

غدت سلمى تعاتبني وقالت	رأيتك لا تريغ لنا معاشا
فقلت لها أما تكفيك دهم	إذا أمسحت كن لنا رياشا
بوارك ما يباليين الليالي	ضربن لها وللأيام جاشا
إذا ما القاريات طلبن مسدت	بأسباب ننال بها انتعاشا
تري أمطاءها بالبر هذلا	من الألوان ترتعش ارتعاشا .

هذا وإننا لنخشى أنك أزيد تماديا في أمرك ، وأعظم شحا على تمرك ، إراغة المعاش ومعالجة الاقتيات ، فقال لها : في النخل التي رزقنا الله كفافا من العيش كاف ، وبلغة من القوت مقنعة ، ثم أعظم من أمرها بدنو طعامها في الجدوب ، وصبرها لتصرف الليالي والأيام . وماترى أرسل هذه الأبيات على ألسنتنا إلا شيطان قد شكا إليك عسرة ، فأثله بسرة ، فهو يحب البقاء عندك ، ودفع متطفلي الإخوان عنك ! فلعن الله الشيطان وأعاذنا منه ، وصلى الله على محمد ولا صدنا عنه ، فإنه يقول : «نعمت العمة لكم النخلة» والخطاب لجميع المسلمين ، وأنت قد استوليت على عمة من عماتهم تستبد بخيرها دونهم ، وتمسك معروفها عنهم ونحن رجال من بنى أخيها أتينا نعتفيها ، فإن أنت سويتنا مع نفسك فيما تدر به عليك ، وتملا منه يدك ، وإلا نافرناك إلى السلطان ، وألبنا عليك أبناء الزمان ، ونستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بخلك نوالا ، وبمطلق إعجالا !

ملحق

حفظ لنا ابن بسام فى الفصل الذى خصصه لابن برد الأصغر فى الذخيرة بعض فقر من كتابه « سر الأدب وسبك الذهب » ، أنقله فيما يلى :

قال ابن بسام :

كان أبو حفص بن برد الأصغر فى وقته ملك البلاغة الدائر ، ومثلها السائر ، نفث فيها بسحره ، وأقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره ، وله إليها طروق ، وفى عروقه الصالحة عروق ، إذ كان جده أبو حفص الأكبر واسطة السلك ، وقطب رحى الملك بالحاضرة العظمى قرطبة . وقد فخر أبو حفص هذا بذلك فى كتابه الموسوم بـ « سر الأدب وسبك الذهب » من أرجوزة يقول فيها :

يا طالب الدنيا بأقصى الجهد
انزع بجسد منك لا بكد
من شاء خبرى فأنا ابن برد
حد حسامى قطعة من حدى
وأرفع الناس بناء جدى
من نظم الألفاظ نظم العقد
ونقصد الكلام حق النقصد
وكف بالأقلام أيدى الأسد
به استضاء فى الخطوب الريد
كل إمام وولى عهد ...

فصول مقتضبة من كتابه المذكور :

قال فى صدره : أما بعد ، فإن الله تعالى - وله الحمد - جعلنا أهل بيت أشرب حب صناعة الكلام نفوسهم ، وشغل بطلب البيان والتبيين قلوبهم ، فغذاونا بالبحث عن الأصول ، على حسب ما وهب الله تعالى لنا من المعرفة ، وسهل علينا من الحزونة ، حتى عرفنا المقسوم لنا منها فتفقهناها ، وفهمنا المنعم به علينا فأحكمناه ، ثم انعطفنا على الفروع فذهبنا مع فنونها واستكثرتنا من عيونها ، ثم إنا لما رأينا أن الأصول قد اخترناها زاكية المنابت طيبة المغارس ، وأن الفروع قد لويناها لدنة الأفنان عذبة ، ترامت بنا آمالنا إلى أن نجتنى من زهرتها ونطعم من ثمرتها ، ونمد يدا إلى غرس قد أبرناه حتى بلغ إناءه ، فنقطف من خياره ، وتتأنق فى اختياره ، وأصبحنا بعد نرمى أعراض الكلام بأسهم أزرها التسديد ، ونعقل مناظم القول بألسن برىء منها التعقيد ، ونذيب من المنثور جداول النطاف ، ونحمد من المنظوم جواهر الأصداف ، وكان جدى أحمد بن برد - رحمه الله - بطول ممارسته لهذه الصناعة برحاء اللب ، والنهمة فى الطلب ، ودعة الزمان وإقبال السلطان ، ومسافة العمر الممتدة له ، قد اقتعد سنامها ، ورفع أعلامها ، وأصبح إمامها ، وزين أيامها ، وركب وسط مساقها ، وأحرز قصب سباقها .

وفى فصل منها :

فإنى وافقت أول معالجتى لهذه الصناعة أواخر أيامه ، وأوان بتات عمره وانصرامه ، خلا أنه - عفا الله عنه - ولما يحل المقدور به ، قد كان أقبسنى مصابيح من وصاياها فيها ، ووطأ لى مراكب من دلائله إليها ، وضرب لى صوى من هداياته نحوها ، أفاد الله بها نفعا ، وأوسع معها إرشادا ، ثم إن الأيام إثر مصابه وبعد ذهابه باكرتنى صروفها ، وشغلتنى برقع خروقتها ومكابدة ضيقها ، وسوق الأدب قد كسدت ، وجمرة السلطان قد همدت ، والعى أمضى من البيان ، والإساءة أحمد من الإحسان ، وأقلامنا يومئذ فى عطلة ، ومحابرنا فى عقلة ، وكتبنا تحت موجدة ، وحينئذ قلت :

لندخله فزاد لنا انغلاقا	قصرنا بالكتابة باب حظ
ولا مد المداد لنا ارتفاقا	فلم تبلغ بلاغتنا مناها
قراطيس أجندناها مساقا	ولا راحت تقرطس بالأمانى

وقلمت المطالب من حـداها لنا أقلامنا ساقا فساقا
فلا هطلت على الآداب مـزن ولا برحت أهلـتها محاقا
وعـوضنا بما نـدريه جـهـلا لعل السوق مدركة نفاقا .

فما زلنا مع الخطوب مساجلين ، ولصروف الأيام مناضلين ، فيوم لنا ويوم علينا ،
حتى إذا أراد الله أن يحيى لهذه الصناعة رسما ، ويعيد لها دولة واسما ، ويرفع سائر
العلوم من التخوم إلى النجوم ، وفتون الآداب من التراب إلى السحاب ، طرف جفن
السعد الباهت ، وارتنفـس الجـد الخافت ، ولقى عثرة العلم مـقيـلها ، ودولة الجهل
مـديـلها ، ونخوة الباطل مـزيـلها ، ورسوم الغباوة مـحـيـلها ، وقـداح البـلاغة مـجـيـلها ،
ورفعت لى سجوف الأمانى عن الملك اليمانى ، غرة كندة التى تضحك عنها ، وهضبة
تجيب التى تأوى إليها ، أبى الأحوض معن بن محمد أيده الله كما أيد الحق ، وصـدقه
وعده كما أحيى الصدق ، فوصلت به سببى ولويت بقوى أطنابه طنبى ، ورأيت به للحـم
جبلا موطودا ، وللديانة ظلا ممدودا ، وللتقوى جبلا مشدودا ، وللعلم بحر طموحا ،
وللأدب روضا مجودا مروحا ، ولم يزل منذ اعتصمت بحرمته ، واعتزيت إلى خدمته ،
يقبل على فى مجالسه المأنوسة بالحـظ واللفـظ ، ويكسبنى بمنازعة الأدب شرف المرتبة
والحـظ ، فأتـمرن على تثقيفه وتقويمه ، وأتـضمـر عن رياضته وتعليمه ، وتلـذنى هـيـبة كـماله
وروعة جلاله إلى شـحـذ سـجـايـى وجمع قـواى ، واجتـنـاب الخـطل فى إيوانه ، والزـلـل فى
ميدانه ، فلا ترى شيئا أشبه به فى التفضل ، وبى فى التقبل من قول حبيب :

نرمى بأشـبـاحنا إلى ملك نأخذ من مساله ومن أدبه

والبلاغة وإن كانت من فنون العلم أرق ما استرق ، وألطف ما عرف ، وأيسر ما به
حاضر ، وأقل ما أمل ، وأوهن ما خزن ، وأدنى ما اقتنى ، فله كلف بانتقادها شديد ،
وصوت فى معرفة نقادها بعيد ، وقد خلص بيمينه العالية جوهر الكلام من أخبائه ،
وممر القول من أنكائه ، فى غير ما كتاب منتم إلى البلاغة معلم فى الكتابة ، فجاء
بالصواب حاسرا ، وببيان الحقيقة سافرا ، وفى هذا النقد سقط العشاء بمن سقط
على السرحان ، وفيه أساء من أحسن بنفسه الظن فى الإحسان .

ومن هذا الباب تولجت إلى صنعة هذا الكتاب ليرى - أيده الله - كيف نبت كلامي على سقيه ، ونما ما أودع تربة قبولى من غرسه ، فإني ضمنت في فنون من البلاغة وفصول من الكتابة سلطانيات وإخوانيات ، وكل ما أوردته مما ولدته ، وما وضعت مما صنعت ، لم أغله لغيري ، ولا خنت فيه أمانة سوى ، إلا أنني طرزته بأبواب من بيوت الشعر المحتوية على الحكم البوالغ ، والجارية مجرى الأمثال السوائر ، لشعراء مجيدين وعلماء مفيدين ، قد ركبوا من المعاني أوطأها مركبا ، ووردوا للألفاظ أعذبها مشربا ، وتخطوا في نظمهم الخشونة إلى اللدونة والتكلف إلى التلطف ، وخاضوا جسوم الحكم إلى الأرواح ، وخرجوا بحسن التخلص من الالتباس إلى الإيضاح ، لئلا تباين طبقة منثورة طبقة منظومة ، ولا تبعد مرتبة جامدة من مرتبة ذائبة ، وليأتى في ازدواج الليل والنهار ، وامتزاج الماء بالعقار .

الفصل الثانى

ابن فتوح أديب أندلسى غمره النسيان

لم يبق لنا كثير من أخبار أبى المطرف عبد الرحمن بن فتوح الشاعر الأندلسى الذى عاش فى القرن الحادى عشر ، اللهم إلا ما يقدمه لنا الفصل الذى يعرض لأدبه ، تضمنته ذخيرة ابن بسام^(١) ، ذلك المؤلف الضخم فى طبعته الأمانة ، وبالرغم من أن باحثين كثيرين يتكئون عليها فى دراساتهم إلا أنها توقفت عند المجلدات الثلاثة - وهى تمثل ثلاثة أثمان العمل كله - التى نشرتها منذ أمد ليس بالقصير كلية الآداب بجامعة القاهرة^(*) .

بخلاف هذا الفصل الذى فى الذخيرة ، لا أعرف مصادر أخرى عن الشاعر حاشا ما وقعت عليه عرضا فى المطرب لابن دحية ، مستشهدا ببيتين ينسبان للشاعر^(٢) وخبر يسير عثرت عليه فى « التكملة » لابن الأبار^(٣) أنقله فيما يلى :

« عبد الرحمن بن فتوح ، يكنى أبا الحسن^(٤) ، روى عن أبى بكر مسلم بن أحمد الأديب بقرطبة ، وكان من أهل الأدب والشعر ، وله كتاب « بستان الملوك » ، ذكره القنطرى^(٥) .

لا ندرى إلا هذا عنه ، لا شىء عن أصله ، ولا تاريخ مولده ولا موته ، ولا يجىء اسمه فيما كتبه المقرئ فى مؤلفه المسهب الضخم «نفح الطيب» ، ولا شىء ، وقعت عليه - إن لم يجانبني الصواب - فى المصادر المتعددة من كتب التراجم التى كان فى ذرعى أن أستشيرها ، وعلى الرغم من المادة الهائلة - بما فيها الذخيرة - التى وقف عليها هنرى بيريس H. PERES فى كتابه «الشعر الأندلسى» فإنه لم يأت فيه ذكر لابن فتوح .

(*) كتب الأستاذ جرانخا ذلك قبل أن يصدر د . إحسان عباس كل أجزاء الذخيرة - المترجم .

ثمة أيضاً بعض الريب فيما يتعلق باسمه ، فكنيته - بدءاً ذى بدء ، كما رأينا فى التو - ليست هى ذاتها فى « الذخيرة » كما فى « التكملة » ، فإن لم يكن يستخدم الكنيتين فإنه يبدو لنا أن ما جاء فى الذخيرة أولى بالثقة ؛ لأن من يسمى عبد الرحمن يكنى عادة بأبى المطرف ، أما نطق اسمه ابن فتوح فيبدو وأنها النطق الملائم ، هكذا ضبطه غرثيه غومث فيما نعت به هذا الجزء من الذخيرة^(٦) مطابقاً بذلك ضبط اسمه فى العنوان الذى يتصدر الحديث عن الشاعر ، لكن فى تضاعيف الذخيرة نفسها نصادف اسمه بتشديد التاء «ابن فتوح» وبهذه الصيغة ذاتها ضبط اسمه ناشرو المطرب^(٧) ، وفى وسعنا أن نقول شيئاً مثل هذا فيما يتعلق بلقبه فهو ابن صاحب الاسفيريا كما يتضح فيما بعد .

نعرف نزرا يسيرا عن حياته ، فهو قرطبى حسب ما نفهم منه هو فى نص أنشره فى نهاية هذا الفصل ، ومن المحتمل أنه من أصل متواضع جداً ، إذا عولنا على ما يرمى به لقبه المعروف ابن صاحب الاسفيريا ، الذى يعنى أن أباه كان يكسب قوته من صنع هذا الضرب من الطعام اللذيذ^(٨) .

كان صديقاً لابن برد الأصغر ولعله أيضاً كانت تربطه صداقة ببعض مشاهير الأدباء من زمرة ابن برد ، وفى بعض الوقت حظى برعاية واحد من بنى جمهور ، أو كما ذكره ابن الأبار ، وكما أخبرنا ابن بسام ، وبلا ريب بحث عن حظ أفضل فى طليطلة ، وإلى ملكها المأمون أهدى إليه مؤلفات أخر ، كما وقفنا - من خلاله هو - على إقامته فى المرية ، أو على الأقل مروره بها فى سنة ١٠٣٩ - ١٠٣٨ = ٤٣٠ ، وهو التاريخ الوحيد الذى نعرفه من حياته إذا كان حقيقياً^(٩) .

تحت عنوان «ذكر الأديب أبى المطرف عبد الرحمن بن فتوح ، وإثبات جملة من شعره فى الغزل والمديح» خصه ابن بسام - كما قلنا آنفاً - بحديث استهله هكذا :

«بلغنى أنه كان يُعرف بابن صاحب الاسفيريا من مشاهير الأدباء ، وله شعر كثير ، إلا أن إحسانه نذر يسير ، وله تأليف فى الأدب ترجمة بكتاب «الإغراب فى رقائق الآداب» ورفعته إلى المأمون بن ذى النون ، وتصنيف آخر سماه بكتاب «الإشارة إلى معرفة الرجال والعبارة» وكتاب سماه «بستان الملوك» رفعه إلى ابن جمهور أيام إمارته بقرطبة » ، ثم يستطرد ابن بسام متحدثاً عن صداقته بأبى حفص بن برد الأصغر الذى زاحم معه شعراء آخرين حسب ما صرح به ابن فتوح فيما نقله عنه صاحب الذخيرة ، فزاحم الشعراء فى مقطوعاته القصيرة الرائعة ، وإن كان لم يزاحمهم فى

القصائد الطوال^(١٠) ، قال ابن بسام : «وابن فتوح هذا كثير الاهتدام لأشعار سواه ، قبيح الأخذ فى كل ما انتحاه ، وشعره كثير البرد ، وبينه وبين ابن برد من مسافة البعد ما بين القطب الثابت والقصب النابت»^(١١) .

إن ابن بسام شديد الإعجاب بابن برد الأصغر ، يبدو ذلك بوضوح فى الصفحات الكثيرة التى خصصها له^(١٢) ثم يضيف قائلاً : «وقد أثبت فى هذا المجموع من شعر الرجلين ، ما يتبين به الصحيح لذى عينين . على أنى ظلمت ابن برد ولم أعدل ، إذ لا يمثل بينهما بأفضل»^(١٣) ، وبالفعل فإن ابن بسام يستشهد أيضاً بعدد لا بأس به من شعر ابن فتوح تحت عنوان «جملة من شعر ابن فتوح فى النسب» - فى الوقت الذى ليس كل ما يرد منه نسيباً - فى موضوعات ابتذلها كثرة الطراق ، ذاكراً فى كل خطوة الشعراء المشارقة والأندلسيين (ابن هانى ، وابن برد ، وابن زيدون ، والطيح ، وآخرين) الذين تقيّلهم هذا البيت أو ذاك ، مشهراً به فى سياق الحديث ، مواجهها إياه بالتعبيرات والمعانى التى يراها عاطلة من الجمال ، وفى الحالات التى يكون فيها ابن برد مسروقاً منه ، أو يذكر بببيت له فى الموضوع ذاته ، فإن الميزان يميل دائماً لترجيح هذا .

أحد هذه الموضوعات - التى من الممكن إلا أن تحدث - هذا الموضوع المعروف جيداً حين يبدو العذار مشوهاً وجه الغلام :

وقف العذار بخده ، فحسبته ليلاً توقف وسط ضوء نهار
وتوردت وجناته ، فحسبتها نارا تلظى فوق ماء جار^(١٤) .

ونرى - مع الأخذ فى الاعتبار ما زدنا به ابن بسام - أن موضوع الغلمان لدى ابن فتوح كان يخضع - ليس فحسب لاستيفاء رياضة بيانية لازمة بل لاعتبارات شخصية غامضة قبل كل شيء لم يكن يحاول إخفاءها ، فيما يلى أورد - فى إيجاز - مشهداً من حياته رواه هو نفسه ، فيما نقله إلينا ابن بسام فى الذخيرة^(١٥) .

وحدث ابن فتوح عن نفسه قال : ماشيت يوماً غلاماً معذراً ، كنت قديم الامتزاز به ، والكلف بقربه ، فلقينى بعض إخوانى معه ، فقال لى : مثالك فى عصرنا مثال ذى الرمة فى وقته ، تقنعك الأطلال ، وما دثر من الديار ، ففهمت عنه ، وأنشدته قبل أن يستتم كلامه بيت أبى تمام :

ما ربيع مية معموراً يطيف به غيلان أبهى ربا من ربيعها الخرب

فقال : إلى متى يوم غرامك بهذا الغلام ، وهذه بنود عزلته قد رُفعت ، وعقدات خلعتة قد عُقدت ، فقلت : لا والله ، ما أرى بنود عزلة ، ولا عقدات خلعة ، وإنما أرى لامات مسك في صحيفة كافور ، وسطور دجى في مہارق نور ، فولى عنى . وكتبت إليه :

أيها العائد المخذل جـهـلا فى هوى من قوام نفسى هواه
أنت تلحى على قضيب لجين عطفتنى عن غيره عطفاه
كان صباحا لعاشقيه فلما بقلت صفحتاه أعشى سناه
مثل ضوء الهلال يزداد ضعفا نوره إن دجت له أفقاه^(١٦)(*) .

القصة ذات مغزى واضح ، وهى واحدة من كثير غيرها تبرز موضوع الكف بالغلماں فى إسبانيا الإسلامية ، وغير خفى أن ابن فتوح لم يشعر بأى حرج من روايتها ، بل إن ابن بسام راق له أن يضمها إلى كتابه .

ينعكس هذا الميل الشاذ عند ابن فتوح فى نص نثرى ينتهى به الخبر الذى أورده ابن بسام ، نص يرد فقط فى مخطوطين استشارهما محققو هذا القسم من الذخيرة ، وهو يشكل الغرض الأساسى فى هذه الصفحات .

يستهل هذا النص المشار إليه بقوله : حدثنا ابن فتوح أيضا عن نفسه^(١٧) . ومحتمل جدا أن يوجد فى أحد مصنفات هذا الكاتب التى ذكرها ابن بسام رسالة أو مقامة تشاكل أسلوب رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد^(١٨) ، بمعنى أنه عن فحوى موضوع من الموضوعات الواقعية أو المتخيلة يتشكل فى كل فصل من الفصول نقد لأدباء الأندلس (من المحتمل أيضا لأدباء المشرق) ، ولا ننسى أن الكاتب كان معاصرا لابن شهيد ، وكان معجبا به ، وقد أقام الأديب المعروف ابن شرف القيروانى فى إسبانيا ، وألف كذلك كتابا فى النقد الأدبى ، وإن كان ذا أسلوب مختلف جدا^(١٩) .

فيما يتعلق بالشكل - حاشا فاتحة العمل - فإن النص كله تقريبا جاء فى نثر مسجوع ، وإن كان فى غير إحكام وإتقان ، من الممكن أن يكون ابتداءا أدبيا محضا ، وإن كان من المحتمل كذلك كونه عبارة عن رواية متأنقة تحكى تجربة عاشها الكاتب .

(*) أسقط المؤلف بيت أبى تمام وأبيات ابن فتوح ، وبعض عبارات نثرية ، ربما كانت ترجمتها إلى الإسبانية تفقدها كثيرا وأثبت المؤلف مكانها أنها مجموعة من الاستعارات ، وقد رأينا الإتيان بها من ابن بسام - المترجم .

يوجد في النص دليان محددان : المدينة ، والعام الذي وقعت فيه القصة ، هذا الدليل الأخير ليس من المعقول وجوده لو كان العمل ثمرة ابتداع أدبي محض ، الموضع هو لقاء الكاتب بـ غلام «حسن المنظر» DE BUENA PRESENCIA - وهو موضوع يطبى المؤلف كما رأينا آنفا- بدأ معه حوار ، توثقت به علاقة بقيت في منطقة الظل ، لكي ينتهى بعمل يشكل القصد الأساسى للكاتب : هو تقييم أربعة فى شعراء الأندلس : أبى حفص بن برد ، وأبى عامر بن شهيد ، وأبى الوليد بن زيدون ، وأبى بكر يحيى بن إبراهيم الطنبى ، وذلك عبر نوع من الاختبار ، يقيم فيه الممتحن - بكسر الحاء المهملة - والممحتن - بفتحها - الميزة التى ينفرد بها هؤلاء الشعراء موضوع الحديث .

وبصرف النظر عن الإصابة فى الرأى التى غدت بها محددة الموهبة الشعرية لكل شاعر من هؤلاء ، فينبغى إبراز الحصافة النقدية لدى ابن فتوح الذى اختار من كوكبة شعراء معاصرين له - أسماء شعراء يعتبرهم النقد الشرقى والغربى من كبار الشعراء .

هذا واضح خاصة بالنسبة لابن شهيد وابن زيدون فى المقام الأول ، مع الأخذ فى الحسبان قلة ما وصلنا من آثار ابن برد الأصغر ، أما فيما يتعلق بأبى بكر يحيى بن إبراهيم الطنبى ، فإنه يبدو وأن الأمر يقتضى بعض تروى ، فمن بين أفراد أسرته المعروفين بقرض الشعر لا نجد أحد يدعى يحيى بن إبراهيم ؛ لذا ينبغى بالتالى أن نتحفظ كثيرا فيما يتصل بمكانته لأنه غريب أن تكون له هذه المرتبة ، ولا نجد له تراثا شعريا ، ولا حتى نجد ذكرا لاسمه (٢٠) ، وخصائصه بإعتباره منتحلا ، ومقلدا لغيره من الشعراء تشاكه ابن فتوح ، ولعله وراء هذا يكمن الباعث فى أن ابن فتوح - كأنه يدافع عن نفسه هو - قد اعتبره شاعرا مجيدا .

هوامش

- (١) الذخيرة ٢/١ ص ٢٧٣ - ٢٨٨ .
- (٢) طبعة إبراهيم الإبياري وحامد عبد المجيد وأحمد بدوي . القاهرة ١٩٥٤ ص ٧٦ ، وهذان البيتان بروايتين في الذخيرة ٢/١ ص ٢٧٨ .
- (٣) التكملة ج ٢ ص ٥٤٩ ترجمة برقم ١٥٥٢ .
- (٤) جمع ابن بشكوال ترجمته في الصلة ص ٥٦٧ ترجمة رقم ١٢٦٤ ، عاش من سنة ٣٧٦ حتى سنة ٤٣٣ (٩٨٦ - ١٠٤٢) أخبار عن الطنبلي (هكذا ليس إلا) . ألا يكون - بلا ريب - هذا الطنبلي تلميذا لمسلم أيضاً ، الشاعر الذي يقصده ابن فتوح ؟ انظر ما سيأتي ص ٧٣ هامش ٢٠ .
- (٥) عن أبي القاسم أحمد بن عبد الله يتحدث مصدر غير مباشر عن ابن الأبار . انظر تكملة الصلة لابن الأبار ج ١ . ط ١ - بيل ومحمد بن شنب . الجزائر ١٩٢٠ . ص ٧ من النص العربي ، وص ١٨ من الترجمة هامش ١ .
- (٦) انظر مجلة الأندلس . عدد ١١ (١٩٤٦) ص ٢٥٤ .
- (٧) الذخيرة ٢/١ ص ٣٩ مع ذكرها ثلاث أبيات توجد مرة أخرى في ص ٢٧٤ وفي المطرب ص ٧٦ (أول هذه الأبيات : قد قضيب وبدر ديجور .: وثغرور ولحظ يعفور - المترجم) .
- (٨) اسم هذا الطبق (كما وصلت إلينا بيانات كثيرة عنه) وكما كان ابن فتوح معروفا بهذا اللقب ظهر بصيغ متعددة ، في البداية كما جاء في مخطوطات الذخيرة ٢/١ ص ٢٧٣ هامش ٢ يكتب الأسفيري ، ومخطوط كتاب الطبيخ الذي نشره A. HUICI كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين ، نشر في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد العدد ١٠٢٩ سنة ١٩٦١ - ١٩٦٢ من ص ١٥ - ٢٥٦ في الطبعة العربية يقدمه كما يلي : اسفيري ، اسفريا ، سفيرية . انظر ص ٨ ، ٩ ، ١٠٦ من الترقيم الخاص بالمؤلف . وكتاب الطبيخ الذي درسته لكاتب أندلسي والذي أشرت إليه في «الأندلس» عدد ٢٥ سنة ١٩٦٠ ص ٢٣٧ يورد هذه الصيغ اسفيرية ، اسفرية ، حتى اسفارية ، وطريقة صنع هذه الطبق كما يعد للبيع في الأسواق ظهر في المخطوط الذي نشره Huici عن الطبيخ الإسباني المغربي . مدريد ١٩٦٦ . ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، أما دوزي فقد دون صيغتين فقط (انظر الملحق ج ١ ص ٢٢) .
- (٩) سأشير إلى هذا كله بإسهاب في السطور القادمة .
- (١٠) الذخيرة ٢/١ ص ٢٧٣ .

- (١١) السابق ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .
- (١٢) انظر الذخيرة ٢/١ ص ١٨ - ٥٢ . الصفحات التي استندت إليها في الفصل الأول من هذا الكتاب .
- (١٣) المرجع السابق ٢/١ ص ٢٧٤ .
- (١٤) المرجع السابق نفس المكان .
- (١٥) يستهل هذا النص بقوله : وحدث ابن فتوح عن نفسه .
- (١٦) الذخيرة ٢/١ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، وحرف اللام لصورته في الكتابة يستعار للتشبيه بالعدار .
- (١٧) الذخيرة ٢/١ ص ٢٨٦ .
- (١٨) نص الرسالة - غير كامل - موجود في الذخيرة ١/١ ص ٢١٠ - ٢٥٧ ، وثمة طبعة محققة منقولة عن الذخيرة لبطرس البستاني ، بيروت ١٩٦٧ ، والقارئ غير العربي - وغير المستعرب - في وسعه أن يأخذ فكرة عن هذه الرسالة مستعيناً بمقال الإلياس تيريس بعنوان مظاهر عن المنافسات الشعرية في الأندلس ، بمناسبة تكريم ملياس بيكروسا ، برشلونة ، القسم الثاني ١٩٥٦ ص ٤٤٥ - ٤٦٦ وبخاصة من ص ٣٥٢ إلى النهاية . وقد نشر أستاذي دون اميليو غرثيه غوث أنه سيقوم بنشر ترجمة كاملة لهذه الرسالة قريباً .
- (١٩) نص هذه الرسالة لابن شرف موجود في الذخيرة كذلك ١/٤ ص ١٥٤ - ١٦٧ ، ولهذا المصنف طبعة مع ترجمة ودراسة للأستاذ شارل بيلا في Questions De Critique Littéraire ، الجزائر ١٩٥٣ لكنى لم أستطيع استشارتها .
- (٢٠) على الأقل وفيما يبدو محتملاً أن ثمة خطأ ، ولعله في الواقع إبراهيم بن يحيى بالكنية ذاتها أبو بكر صديق ابن حزم ، والذي ذكره الأخير في حديثه عن آل الطبني في جمهرة أنساب العرب ط ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٢٠٩ . وانظر إلياس تيريس في مقاله أنساب عربية في الأندلس المنشور في مجلة الأندلس عدد ٢٢ سنة ١٩٥٧ ص ٩٤ هامش ٢ ، وينبغي الإضافة إلى ترجمة هذه الشخصية المذكورة ما جاء من خلال ابن حزم ، وقد أخذه عنه الحميدي في الجذوة ص ١١٩ - ١٥٠ ، ترجمة رقم ٢٩٤ واستفعله - كعادته دائماً - الضبي في البنية ص : ٢١٢ ، ٢١٣ . وإبراهيم بن يحيى هذا يجيء مشقوقاً بلقب وزير ، أديب ، شاعر ، ولاعتماد هذا اللقب الأخير يذكرون له بعض أبيات ، وحتى وإن كانت هذه الشخصية هي شخصية الشاعر الذي تحدث عنه ابن فتوح فإن رأيي يظل كما هو عند عدم العثور أيضاً في كتب التراجم ، ويوصفه شاعراً لم يتعد أن يكون شاعراً متوسطاً .

مقامته عن شعراء عصره

كنت ليلة في رمضان أطوف بالمسجد الجامع بالمرية سنة ثلاثين ، وإذا فتى حسن المنظر فسلم على سلاما ارتاحت له نفسي ، وانشرح له صدري ، فرددت عليه رد من توسم فيه سمة الفهم ، فقال لي : بحرمة الأدب إلا ما أعدت على البيت ، فأعدته وأنشدت سائر الأبيات ، فقال : الشعر إثم (ثم) قال لي : إنما أخذته من قول العباس بن الأحنف :

وأحسن أيام الهوى يومك الذي تروع بالهجران فيه وبالعتب
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا فأين حلالات الرسائل والكتب .
فقال : ورئت بك زنادي ، فأخبرني عن السبب الموجب لترديدك البيت ، قلت له :
منيت بخل مولع بالخلاف مائل إلى قلة الإنصاف ، إن لا ينته غضب ، وإن استعيتته
عتب ، وقد علم الله شفقة نفسي لفرقتي ، فقال : قلب الله لك قلبه ، وجنبك عتبه ، ثم ولي
عنى وقد غرس في كبدي ثمرة وده ، فبت الليلة مستأنسا بخياله ، جذلان بوصاله ،
حتى رأيت غرة الفجر تلمع في كفل الدجى ، فخلته بحرا تسرب فيه جدول ، أو عجاجا
سل من تحته منصل ، فقامت بانيا على قصوده ، فلم ألبث أن سمعته ينشد ويطلب
منزلي ، فقرع الباب ، وأذنت له فدخل ، فرحبت به وقمت إليه وأقبلت عليه ، فقال لي :
يا ابن الكرم إن هذا يوم قد بكى ماء غيمه ، ونبض عرق برقه ، وخفق قلب رعده ،
واغرورقت مقلة أفقه ، ونحن لا نجد الخمر ، فبم نقطع تأويله ؟ فقلت : الرأي إلى
سيدي أبقاه الله ، فقال لي : كيف ذكرك لرجال مصرك ووقوفك على شعراء عصرك ؟
فقلت : خير ذكر ، فقال : من أعذبهم لفظا وأرجحهم وزنا ؟ قلت : الرقيق حاشية
الظرف ، الأنيق ديباجة اللطف أبو حفص بن برد ، قال : فمن أقواهم استعارات
وأصحهم تشبيهات ؟ قلت : البحر العجاج ، والسراج الوهاج أبو عامر بن شهيد ،
قال : فمن أذكروهم للأشعار وأنظمهم للأخبار ، قلت : الحلو الظريف البارع اللطيف
أبو الوليد بن زيدون ، قال : فمن أكلفهم بالبديع ، وأشغفهم بالتقسيم والتتبيح ؟ قلت :
الراعي في روضة الحسب ، المستطيل بمرجه الأدب أبو بكر يحيى بن إبراهيم الطنبلي ، فأنشد :

وخاطب قسا في عكاظ محاورا على البعد سحبان فأفحمه قس .

الفصل الثالث

من نشر أبى حفص عمر بن الشهيد

فى القسم الثانى من المجلد الأول من الذخيرة لابن بسام فصل خاص بالأديب أبى حفص عمر بن الشهيد^(١) يضم رسالة عجيبة له موجهة إلى أحد أصدقائه لم يثبت اسمه ، وفصولا من مقامة ليس لها عنوان ، ومختارات من شعره ، تأتى هذه المنتخبات النثرية والشعرية لابن الشهيد بعد مقدمة موجزة لابن بسام يمدح فيها الأديب ، لا فائدة منها على الإطلاق - ولو فى سطور عامة - لتصنيف ترجمة لهذا الأديب .

وهذه الصفحات عبارة عن ترجمة لهذه الفصول النثرية لابن الشهيد الشاعر الأندلسى الذى عاش فى ألمرية قبل تسعة قرون .

لا أعرف أحدا درس شخصية ابن الشهيد ولا أدبه ، أشار إليه - عرضا حين كانت « الذخيرة » رهن المخطوطات - الأستاذ هنرى بيريس فى كتابه الجيد « الشعر الأندلسى فى اللغة العربية الكلاسيكية » بصدد الحديث عن مقامته التى أشرت إليها فى التو ، وقد وجد الأستاذ بيريس بين هذه المقامة وبين « رسالة التوابع والزوابع » لابن شهيد « تشابهات قاطعة » وأكد أن صاحبنا أبا حفص : « عالج الموضوع ذاته ، من وجهة النظر ذاتها »^(٢) .

أعترف - مع كل تقديرى الذى يستأهله شخص الأستاذ بيريس وكتابه - أننى لا أجد بين العاملين أى تشابه ، حاشا ما يمكن أن يوجد بين العاملين من أنهما كتبا فى عصر واحد تقريبا ، واتبع كلاهما طريقة السجع ، واست بواجد أية علاقة بين موضوع كل من الرسالتين ، ولا بفاهم إلى أى وجهة نظر يومئ الأستاذ ، وفيما بعد يقيم افتراضا ذكيا يحاول خلاله أن يبين تأثيرا محتملا من الأدب اليونانى فى رسالة التوابع والزوابع^(٣) ، يشير إلى ذلك بوضوح ، وإن كان هو ذاته يعتبر التأثير ضعيفا ، لست أكرر رأيه هذا هنا ؛ لأن كتابه « الشعر الأندلسى » فى وسع القارئ أن يرجع إليه فى يسر ولئلا أخرج عن الموضوع ، أقول إن هذا يخرج بنا عن الموضوع ؛ لأن بيريس يؤكد

على أن صاحبنا أبا حفص استوحى من قريبه وسلفه أبي عامر بن شهيد ، افتراض القرابة هذا - فيما أتصور - هو الذى دفعه إلى أن يرى هذه المشابهة بين الرسالتين ، والأستاذ بريس - دون علة معروفة - يدعو أدينا هذا أبا حفص بن شهيد . ضبط يمكن قبوله فى البداية ، لكن بدون استغناء عن أداة التعريف ، لا أجادل فى أن أبا حفص كان فى ذرعه أن يستوحى الشاعر القرطبي الكبير ، لكن نعم لو وجدت تلك القرابة بينهما كما سوف نرى الآن .

ترسمه الذخيرة المطبوعة وتضبطه هكذا «ابن الشهيد» دون أن تشير إلى أى اختلاف ، وظهر أيضاً فى نفح الطيب مع أداة التعريف خلال رواية يظهر فيها الشاعر سنتناولها فيما بعد ، وإذا كان الأستاذ بريس - فيما يبدو - قد استغنى عن روايات أخرى تتناول الأديب ، فكان عليه أن يحترس أمام صمت ابن بسام عن علاقة القرابة المفترضة بالشاعر القرطبي الكبير ، ونظرا لشهرة ابن شهيد ما كان كاتب الذخيرة ليغفل هذه الإشارة ، بيد أن الحجة الأقوى ضد هذا التأكيد ما زدنا به الحميدى فى «جذوة المقتبس» ، ونقله عنه الضبى فى «بغية الملتبس» فى ترجمة عمر بن الشهيد (بأداة التعريف) أبي حفص ، بنسبة «التجيبى» يقول الحميدى : «لا أحفظ اسم أبيه ، وابن الشهيد هذه صفة نسب إليها ، فغلبت عليه» .

وبجانب هذه الإشارات يظهر اسمه فى كتاب «أعمال الأعلام» لابن الخطيب فى عبارة طويلة منقولة بالنص عن ابن بسام ، وضبطه الناشر - أظن ذلك فقط فى الطبعة الثانية - بـ ابن الشهيد ، ومن المحتمل أن نيكل Nykl - لأنه رجع إلى كتاب بريس - ضبطه عمر بن شهيد فى كتابه Hispano Arabic Poetry ^(٤) «الشعر الأندلسى» مستندا إلى «نفح الطيب» ^(٥) .

قليل ما يرويه مؤلف «الجذوة» ^(٦) عن صاحبنا - وكتابه أقدم المصادر التى لدينا ، إلى جانب ما قيل من قبل - يقول إنه رئيس ، وشاعر مشهور بالأدب كثير الشعر ، متصرف فى القول ، مقدم عند أمراء بلده .

ويقتصر الحميدى على نقل بعض شعره ، ونسخ الضبى بعضا منه ^(٧) ، وهذه القصائد موجودة كذلك فى «الذخيرة» ، يلقيه ابن بسام فى تقديمه له بلقب الوزير - وهو لقب لا يعنى - دائما وكما نعلم - هذه الوظيفة ^(٨) ، نجده يقول عنه هذه الكلمات : «وأبو حفص هذا فى وقتنا كان فارس النظم وأعجوبة القران والعصر ، ونهاية الخبر والخبر ، رقم برود الكلام ، ونظم عقود النثر والنظام ، وهو وإن لم يزر الملك ، ولم تدر

عليه رحي ملك ، فليس بمتأخر عن طبقات المحسنين ، ولا بسكّيت حلّبات الكتاب المجيدين» ثم يضيف قبل أن يذكر مختارات له : « وقد أخرجت في هذا الفصل من بارع كلامه ، في نثره ونظامه ، ما يشهد بوضوح أعلامه ، وشهر أيامه»^(٩) .

الخبر الوحيد الذي لدينا عن حياته هو أنه كان مادحا للمعتصم صاحب المرية وفي «الذخيرة» قصائد متعددة في مدح هذا الملك الذي كان راعيا عظيما للأدب ، يتحدث ابن بسام عن المعتصم فيذكر أن ابن الشهيد كان من جملة فحول الشعراء الذين أعملوا إلى حضرته الرجال ، ممن لم يعلق بسواه سببا ، ولا شد إلى غير ذراه كورا ولا قتباً^(١٠) ، والتقى به الحميدى في مدينة المرية حوالى (عام ٤٤٠ = ١٠٤٨ - ١٠٤٩)^(١١) والرواية التي حفظها لنا المقرئ^(١٢) والتي خاب فيها أمل الشاعر - هي برغم ذلك - هامة ؛ لأنها تقفنا على التقدير الضخم الذي كان يوليه الملك لشعره ؛ عند فراغه من إنشاد إحدى قصائده يمدح فيها كرم الملك ، التفت الممدوح إلى الشعراء الحاضرين وسألهم : «فيكم من يحسن أن يجلب القلوب بمثل هذا ؟ فقال أبو جعفر بن الخراز البطرني : نعم ، ولكن للسعادة هبات ، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتا أقول فيها :

وما زلت أجنى منك والدرهم محل ولا ثمريجنى ، ولا زرع يحصد . الأبيات(*)

وقد حصل الشاعر أبو جعفر بذلك على صلة ملكية سنوية^(١٣) .

يحتوى «المغرب» لابن سعيد أيضاً على الثلاثة الأبيات الأولى فى هذه القصيدة ، ويذكر عبارة المسهب «وكان مقتصرًا على ملك بلده المعتصم بن صمادح»^(١٤) مما يشي بأن الكاتب كان يعتبر الشاعر مولودا فى المرية ، وهو شئ غريب - فى أى حال - فإن الكتاب القدماء الذين اهتموا بابن الشهيد لم يذكروا شيئاً عن هذه المسألة .

إلى هنا تنتهى الأخبار التى استطعنا العثور عليها عن أبى حفص عمر ابن الشهيد التجيبى .

نتخلى عامدين عن شعره - ومنه نماذج كثيرة فى «الذخيرة» - لأنه لا يمثل أهمية بالنسبة لنثره ، شعره - فى معظمه - مقطوعات من قصائد فى مدح المعتصم وفى مناسبات مثل هجر المعتصم للنبيذ زمنا ، وقصائد أخرى تجدها بنصها عند الحميدى ، أو منقولة عنه ، ولا توجد فى «الجنوة» .

(*) هى ثلاثة أبيات لم يذكر المؤلف واحدا منها - المترجم .

أما نثر ابن الشهيد - فى حدود ما أعلم - فلا يبدو أنه أيقظ صدى بين أدباء إسبانيا الإسلامية ونقادها ، جمع ابن بسام فحسب شيئاً منه ، لكن فيما يبدو نجد صمماً مطبقاً حول عمله ، وهو شىء جائر تماماً ، المقطوعتان اللتان بسبيلنا - وقد ترجمناهما إلى الإسبانية فى الصفحات التالية - تبدوان لى ذاتى قيمة كافية لكى تجذب انتباه الكتاب المعاصرين واللاحقين لصاحبهما ، وإننى لأعتبر أن الرسالة ومثلها المقامة عملان - من وجهة نظر غربية وبعد تسعة قرون من كتابتهما - يحويان أهمية قيمة تعلو على ما هو شائع فى الأدب الأندلسى .

إن المؤلف الذى يقف جيداً على الأدب العربى ، لا يشعر من ثم بأية ضرورة للتباهى بهذه المعرفة ، وإن كان ثمة بيت زوق به عمله مأخوذ من أبى تمام - كما يعترف المصنّف - ولا يدفع الضريبة الإجبارية لمعرفته الواسعة التى هى خصيصة شائعة فى الأدب العربى ، ولا يخضع فى عبودية عمياء للتقليد ، حين نقرأ ما بقى من نثره وبخاصة مقامته تطفر إلى الذهن كلمات ابن حزم فى مقدمته لطوق الحمامة : «[والتزمت فى كتابى هذا الوقوف عند حدك ، والاقتصار على ما رأيت أو صح عندى بنقل الثقات](*)» ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبى أن أنتضى مطية سوى ، ولا أتلى بحلى مستعار»(١٥) .

أما رسالته فهى صفحات من الفكاهة النافذة ، يفقد الحوار فيها شيئاً كثيراً بترجمته ، حوار بين الرسول بتعليقاته الواشوية بخبرته فى الأدب العربى ، وبمزاجه ذى النبل والحسب العربى ، وبين الخادم المتعقلة (الحادة فى جوابها) التى تستعرض أيضاً معارفها الأدبية .

تعرض المقامة أيضاً أهمية كبرى ، ومع ذلك لم ينقلها ابن بسام لطولها - وهو شىء مؤسف ؛ لأنه يتنبأ من خلال هذه الفقر غير المتسلسلة أنها أقصوصة رائعة ، وإن كانت مغلولة بأصفاة السجع التى لم يشأ المؤلف أن يطرحها ، وفى العمل أصالة وإبداع ، وفيه نفس شعري لا يوجد مثله كثير فى الأدب العربى .

(*) ما بين معقوفتين لم ينقله المؤلف إلى كتابه ، وقد رأينا الإتيان به - المترجم .

المقدمة اليسيرة موجهة إلى شخصية ما لا نعرفها ، أو ببساطة هي موجهة إلى القارئ الذى يستوحى من الكاتب وعيا واضحا - بدون بذاءة - قيمة عمله الأدبى ، وفى شىء من التكريم بعيدا عما هو شائع بين كتاب هذه الحقيقة ، والشعور فى هذه المقامة - نظرا لنوعها - أقل من الذى يعتقد الكاتب أن فى ذرعه صنعه ، أو ما يجب عليه صنعه ، معبرا عنه تعبيرا جميلا فى سلسلة من المجازات متتابعة ، ولم يمنعه أن يشرع فى كتابتها واعيا أن هذا ليس مهمته ، لكن دون خجل من أن يتصدى لموضوع أقل من إمكانياته .

تسلسل المضمون - ولنسمه هكذا - فى هذا التتابع من اللوحات التى نزلت من فصول مختلفة من العمل أقرب إلى الإغماض ، هناك شخصية الفقيه ابن الحديد فى المقدمة ، وفى الفقرة الأولى أيضاً عندما رسم لنا المؤلف الجو إجمالاً ، ذلك الجو الذى بدأ يبسط فيه الحدث عندما أشار إلى زمنه : فصل الربيع الذى تبدأ فيه القصة .

وبدءا من هنا فإن العمل ضرب من المذكرات عن مشروع رحلة تقوم بها ثلة من الأصدقاء يقص أحدهم بروح شاعرية ، مرتجلا أحيانا أبياتا وصفية تصيب محزها فى المقدمة ، وفى الفقرة الثانية ليس ثمة إشارة إلى الفقيه الذى سوف يظهر من جديد فى المقامة ، إنه مشهد ريفى فى مزرعة يغمرها النور - نستطيع أن نخمن أنها قريبة من البحر المتوسط - الجزء الأول منه صورة لبدوى ذى هيئة وزى ، يعيش محاطا بكل وسائل الراحة ، كريم ، وعلى شىء من الفكاهة ، الجزء الثانى ضرب من حكاية لطيفة تميل إلى الخرافة ، يستخدم الديك الحكيم فيها الأخلاق العملية ، ويلجأ إلى إزجاء مشاعر الشكر لكى ينقذ حياته ، ولكنه لا يتردد فى اقتراحه أن يغيروه بتضحية أحد أبنائه ، تعرض هذه الفقرة أهمية خاصة ، لأنها المصدر المباشر لأحد فصول تحكيمنى ، كما سنرى حالا ، تأتى الفقرة الثالثة - ومن الممكن أن تعتبر شعرا وصفيا - يأتى بعدها فى الفقرة الرابعة وصف قرية أنة (قرية مستعربة) وفيها وصف للمرأة النصرانية يستخدم فيها الكاتب كل النعوت المطروقة فى الشعر ، يظهر الفقيه من جديد - فى ثلة الأصدقاء - لكنه لا يقوم بأدنى دور .

يتابع الفرسان السير فى الفقرة الخامسة حتى يصلو إلى أطلال كنيسة ، يشعر الكاتب مدفوعا - فى صدق - إلى تأمل هذه الطلول الدوارس ، وإن كان الشعر الذى يرتجله الراوى صدى لموضوع مطروق فى الشعر الجاهلى عن الرسوم الدوائر ، يسرى فى كل هذا المنظر شعور صادق فى ذرعنا أن نصفه بالرومانسية .

اهتز الكاتب أمام جدران الكنيسة التي أضت أطلالا ، وعلى الرغم من بعض العبارات التي بها شيء من عدم احترام المسيحيين ودينهم ، والتي تقرأ بين السطور في هذا المشهد ومشهد آخر من الضرب ذاته ، فإن التعاطف قد ألهمه بالفعل .

وعلى التوالي وفي الفقرة السادسة يقص علينا مشروع صيد في شعاب عالية ، وهذه الفقرة هي أصعب فقر المقامة ، ولست على يقين تماما بتفسير بعض عباراتها تعبيرا أميناً ، وإن كنت قد استعنت بالدكتور محمود على مكي لمعرفة الواسعة بالأدب العربي ، والذي أقدم له شكرى الجم .

في الفقرة الأخيرة يلتقون برجل من «إلتشي» (Elche) يمقت النصرانية ، ويريد أن يعتنق الإسلام ، وهنا يظهر الفقيه من جديد ليقوم بدور ضخم .

الحريزى مقلدا لابن الشهيد

عندما نشرت هذا الفصل في سنة ١٩٦٠ كنت أجهل أن ثمة عملا موجودا في اللغة العبرية للأستاذ شيرمان بعنوان «حول مصادر تحكيمنى ليهودا الحريزى» والذي أشرت إليه في الصفحات السابقة^(١٦) ، وقد نشر في مجلة طربيز Tarbiz ، والذي وقفت على خبره عبر إشارة مختصرة^(١٧) ، ذلك المقال ألمح إلى مقال آخر للأستاذ : س . م . شتيرن S.M. Stern في اللغة العبرية كذلك ، وفي المجلة ذاتها^(١٨) ، وفيه دراسة للمصادر لإحدى مقامات تحكيمنى .

في هذا المقال الهام - بعد عدة اعتبارات عامة عن نوع المقامات (وقد نقدها بعنف الأستاذ شيرمان : Schirmann^(١٩)) - أذاع الأستاذ شتيرن اكتشافه لمصدر المقامة العاشرة (الديك الواعظ) في تحكيمنى ، هذا المصدر في المقامة ذات الفقر لابن الشهيد (الفقرة الثانية من ترجمتى) وقد درس شتيرن في إيجاز شديد شخصية أبى حفص عمر بن الشهيد - مستندا إلى الذخيرة فقط ، قائلا إن بقية المصادر الأندلسية غير حاضرة لديه - مشيرا إلى أن مقامته لا تتفق مع النوع تماما^(٢٠) ، وبعد اختصار كل فقرة في سرعة (وهو اختصار ينبغى أن نشير إلى أن فيه بعض الأخطاء) يصل إلى التركيز على فقرة الديك وصلتها بالمقامة العاشرة للحريزى ، معطيا أساسين لنصوص المنظر ، مقارنا بينهما (فقرة ابن الشهيد في ترجمتها العبرية) لكى يحكم القارئ بنفسه على حدود الصلة بين النصين : ليس ثمة فحسب باعث مشترك ، بل

واضح أن الحريزى كان أمامه النص العربى ، وإن كانت صنعتة تعرض بعض الثغرات والتحريفات والتغييرات عن الأصل العربى .

يستخلص شتيرن أن «التشابه بين النصين كبير بما فيه الكفاية ، الأمر الذى ينفى أى شكوك حول هذه العلاقة ؛ فإن البناء القصصى بينهما متماثل ، وهما أيضا متماثلان فى التفاصيل ، وتفاصيل التفاصيل ، وفى إيجاز : إن لم تكن نرى مقامة الحريزى ترجمة صرفة ، فإنه يجب اعتبارها إعادة وضع ، لا تبعد عن المصدر الأصلى كثيرا .

هوامش

- (١) انظر الذخيرة ٢/١ ص ١٨٠ - ٢٠٠ .
- (٢) هنرى بيريس ، الشعر ص ٢٧ .
- (٣) المرجع السابق ص ٢٨ .
- (٤) راجع ص ١٩٦ . سأنكر فى الهوامش التالية الإشارات إلى المصادر المذكورة فى أعلاه .
- (٥) بالرغم من أن هذا المقال ظهر فى مجلة الأندلس سنة ١٩٦٠ ، وبالرغم من أننى حررت مقالا عن الكاتب نفسه لدائرة المعارف الإسلامية (ج ٣ ص ٩٥٩) فإن راشيل أريى Archel Arié فى كتابها Notes Sur La Maqâma Andalouse (ص ٢٠٤) المنشور سنة ١٩٦٨ ما تزال تسمى الكاتب فى إشارة مختصرة أبا حفص عمر ابن شهيد ، قريب كاتب رسالة التوابع والتوابع ورفض الأستاذ شيرمان القراءة الصحيحة (ابن الشهيد) التى قرأها الأستاذ شتيرن (الذى استند إلى الذخيرة) مصرأ على قرابته لابن شهيد ، مستشهدا بالأستاذ نيكل (سابقا هامش ٤) فى مقاله فى طرييز (المذكور سابقا ص ٢٧ هامش ٦٦) ص ١٩٨ وهامش ٥ .
- (٦) الجذوة ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .
- (٧) البغية ض ٣٩٤ - ٣٩٥ ترجمة رقم ١١٦٥ .
- (٨) راجع هنرى بيريس ، الشعر ص ٨٤ وليفى برونسال فى كتابه إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر . باريس ١٩٣٢ ص ٦٧ - ٦٨ .
- (٩) الذخيرة ٢/١ ص ١٨٠ - ١٨١ .
- (١٠) راجع الذخيرة ٢/١ ص ٢٣٩ ، وهذا النص موجود أيضاً مع بعض اختلافات فى كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب ، ط أولى ، الرباط ١٩٣٤ ص ٢٢٠ . ط ثانية بيروت ١٩٥٦ ص ١٩٠ .
- (١١) الجذوة ص ٢٨٣ .
- (١٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨١ .
- (١٣) اختصر الرواية هنرى بيريس فى كتابه الشعر الأندلسى ص ٨٢ ، واستخدمها أيضاً دوزى فى (بحوث ج ١ ليدن ١٨٤٩ - ج ٥ ص ١٠٥) وترجم بعض أبيات لشاعرنا (ورسم اسمه عمر ابن شهيد - Vosmains : (Omar Ibno - S'schohald)répandent Une Plule De Bi - enfaits, on ne Peut Vivre Heureux Que là où Vous Vous Trouvez,et Sans Vous les Jours De Notre Existence Se Traîneraint Tristement.

وفى الهامش يقدم ترجمة حرفية البيت الأول الذى بدا له هكذا (ج ١ ص ٢٥٦ - ٥٧ D'un Mauvais Goût Inexcusable) انظر الطبعة الثالثة حيث تظهر الترجمة مع تعديل طفيف ، والمقارنة فقط هي : "D'en Goût Que Peut-Être Nous Trouverions Contestable" وفى هذه الطبعة الثالثة يرسم دوزى اسم الكاتب صحيحا عمر بن الشهيد Omaribn-Aschahîd. ولكن لم يلتفت إليه أحد .

(١٤) المغرب ج ٢ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(١٥) طوق الحمامة فى الألفه والالاف لابن حزم القرطبي ، ترجمة من العربية إلى الإسبانية إميليو غرثيه غومث ، مدريد ١٩٥٢ ص ٧٠ .

(١٦) سابقا ص ٢٧ هامش ٦٦ وص ٨٤ هامش ٥ .

(١٧) الخلاصة المذكورة (فى سفراد عدد ١٤ عام ١٩٥٤ ص ٢٠٥) أشار بها على الكاتب الأستاذ ف . بيريت كاسترو ، وجدت صدى لدى مجلة الأندلس عدد ٢٥ عام ١٩٦٠ ص ٢٨٩ هامش ٣ ، ٤ .

(١٨) س . م . شتيرن Aravise^c - Mqorah Ha - للحريزى "Mqamat Ha - Tarngol" فى طريز ١٧ ، رقم ٢ (١٩٤٦) ص ٨٧ - ١٠٠ ، قرأ المقالين مفضلا تلميذى العالم وصديقى العزيز فيديريكو كورينطى - الذى أشكر له معاونته الكريمة - وترجم لى الفقر التى أشرت عليه بها ، وبما أن اللغة العبرية يعسر الوقوف عليها تقريبا إلا لغير المتخصصين فقد بدا لى ملائما أوجز الخطوط العريضة لمقال شتيرن .

(١٩) Schirmann. L- Heqer Mqorotav Šel Sefer Ha - Tahkmoní En Tarbiz 23.3 - 4 (1952) p.198 Nota 5 .

(٢٠) شتيرن ، مقاله المذكور ص ٩٠ ، واستغنى عن بعض الاعتبارات الأخيرة لدى الكاتب عن استخدام الحريزى لنص ابن الشهيد ، وعن التوفيق الذى صنعه الأول ليصحبها فى قالب المقامة الكلاسيكية .

من رقعة خاطب بها بعض إخوانه يقول فيها

أبتك أحدىثة عجب تضحك سنك ، وتطبق بالطيب وقتك ، فما زالت النوادر
مستغربة لا سيما نوادر عليّة الكتبة : وجهت فلانا إلى بكتاب يخصك ما تضمنه ،
وكنّت - علم الله - حين موافاته منزلي حليف ألم ، قد أطلت عليه التملل ، وأسهرني
ليله الأطول ، وقد انفض عني من كان معي رجاء غفوة أستشفى بها ، فقرع الباب
قرعاً منكراً يتبين الحرج فيه ، ويظهر الضجر في تتاليه ، فتدخل الخادم رعب وقالت :
هو خطب ! ثم خرجت على تحامل بروعة جنان ، ولججة لسان ، ومنطق جبان ، تنقل
قدمها إليه على وجل «كما يمس بظهر الحية الفرق» ثم قالت : من الرجل ؟ فأنفض
رأسه نحوها وقبض على لحيته بيمينه ، وأحد النظر إليها وتتهد وقال : أواه على
طموس رسم الأدب ! وتمثل :

إنى لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ، ولكن لا أرى أحداً

ثم أقبل على الخادم وقال : يا لكاء ! كسبت في مئونة العيش معرفة الحلو والمر ،
والخشن من اللين ، وفي كل ذلك لم تحفظي بيتاً واحداً من الشعر يحسن به أدبك ،
ويحجرك أن تقولي من الرجل ! أين أنت يالكعاء من قول أبي تمام :

يحميه لألاؤه ولو ذعيتنه ممن أن يذال بمن أو ممن الرجل

ولكنك ما علمت ، حرجة الصدر ، قلبك فارغ إلا من الغفلة ، ولحظاتك بليدة على
التفصيل والجملة ، أقسم لو أنك امرأة من الأزد أسد الباس ومقاديم الناس ، لرأيت
لألاء الأزدية في أسرة وجهي ، ولولا تحفزي للأمر الذي وردت له لكان لي ولك شأن ،
ولأعطيتك قانوناً في الفراسة والزجر ، ونبذت إليك بعلم من علوم الدهر ، لا يلتبس
عليك معه الشريف أيام عمرك . يا هذه قولي لرب المنزل يترمرم لإنفاذ هذا الكتاب ،
فقلت له الخادم : عافاك الله إنه عليل ، ومن وصبه ثقيل ، وقد برح به السهر ، ولأن

لغفوته السمر ، ولا بد من التخفيف عنه . فجر جر جرجرة العود الدبر ، وتزيد من الحرج والضجر ، وقال : بسل علينا معشر الأزد أن نفرى ولا نخلق ، أو نتوجه فى أمر فلا نحقق ، يا هذه ليس هذا إيوان كسرى فنتزود لاستخراج الحاجة به المال والصبر والعقل ، ومن العجب وقوفى معك منذ اليوم أضرب لك الأمثال ، وأصرف المقال ، وأنت لاهية عنى ، لا يعنك أمرى ، أترين صاحبك شرب من الخمر أقداحا ، وسمع نوبات ، فلما اعتدل مزاجه ، وتوارت وجوه النواشب عنه ، قال للدهر أدر دوائرك فإنى لا أعبأ بك؟ قد علمت علتة ، أقسم لو أن به ألف علة ، تكون حياته من جميعها مختلة ، لينفذن هذا الكتاب ! قالت له الخادم : ويحك ما أجفاك من واقد الأزد ! أين منك رقة الحجاز وفصاحة نجد ؟ ما أقبح هذا العقوق ، بمن شرب ماء العقيق ، وأسوأ هذا الأدب ، ممن ينتهى إلى نؤابة العرب ! فقال : يالكعاء ، إنك لتجادليننى عن نسبى ! وحياة ما نقلته من الخطى ، وتجشمتة من البيداء ، لينفذن هذا الكتاب ، أو لأشهدن عليه بالعصيان والتكاسل ، والتوانى والتثاقل ، فمثلى لا يرد إلا بحزم ، ولا يصدر إلا عن فضل ، فقالت له الخادم : ما أسوأ تقديرى للأمور ! لئن كان مخمورا خمر وصب ، فهؤلاء الشهود معهم شرب ، وعندهم طرب ، وصاحب المدينة منه بنسب ، وعلى صلة سبب ، فأين تذهب ؟ فشمخ بأنفه ، وكسر من طرفه ، ومدد الزفرة ، وردد التلهف والحسرة ، ثم قال : أف للدنيا فما تزال تعيننا بمثل هذه الهناة ! فلما شد على نسعه للانصراف أقبل على الخادم فقال :

قفى قبل التفرق يا ضباعا ولايك مسوقف منك الوداعسا

أما إنك لولا أن تكونى باهلية الضئضى لعرفتك ، ولكن سأودع عندك أرجا يدل على موقفى فى هذه البحبوحة . أنا العتكى الحسب والنسب ، وذو الهمة والأدب ، فمن سألك فقولى ما شهدت ، وحدثى عما عاينت ، وما أراك تجدين ظاهرا تقيمين به فرض الثناء على ، اذهبى لا محفوظة ولا مكوءة ، ثم انحدر فما علمنا ما كان منه .

وله من مقامة حذفت بعض فصولها لطولها

قال في صدرها :

إن صفحة الكتابة محنة من المحن ، ومهنة من المهن ، والسعيد من خدمت نولة إقباله ، والشقى من كانت رأس ماله ، والعاقل من إذا أخرجها من مثالبه ولم يدهنها في مناقبه ، لاسيما وقد تناولها يد كثير من السوق ، وباعوها بيع الخلق ، فسلبها تاج بهائها ، ورداء كبريائها ، وصيروها صناعة يكاد الكريم لا يعيرها لحظة ، ولا يفرغ في قالبها لفظة ، إذ الحظ أن يعثر الكرام إذا ولي الأعلاج ، وأن تستعج الآساد إذا استأسدت النعاج . غير أنه من وسم بسمتها ، وظهر في وسمتها ، فنيير مجهول مكانه ، ولا مسلم له كتمانها ، وما عسى أن يصنع بذى مكانة وحسب ، إذا اتفق يوم سرور وطرب ، ورغب رغبة كريم ، أن يؤرخ له بمنثور ومنظوم ؟ أقسم لو كان وجهه في صفاقة نعله ، أو وقاحة حافر بغله ، لما وسعه غير الإسعاف على حكم الإنصاف ، وإلا لزمه اسم التبريد والجمود . وبهذا السبب دفعنا إلى النصب فيما تسمعه ، وربما تستبرعه ، ولئن مرت بك كلمات محاليات ، تنظمها سلوك هزليات ، فإنما هي أوصاف طابقت موصوفاتها ، وحلى على أقدار محلياتها ، والبليغ كالجوهرى واجد التعب ، فى نظم الدر أو المخشلب ، وكالصائغ واجد العناية فى سبك الصفر أو الفضة البيضاء ، وكالعقاب واجد الانهواء ، على الصفر أو المكاء ، والعاقل من برز يوم السرور فى زى الأعياد ، ويوم الحزن فى ثياب الحداد ، وسيان فى الفجاجة والبرد ، من جد عند الهزل أو هزل عند الجد ، ولا أوضح فى القياس من حركات الناس كحركات الشموس والأقمار ، فى الفلك الدوار ، كلما انتقلت فى المنازل والبروج ، عدلت بالأسطرلاب والزيج ، ووقف على حقائقها ، بثوانيتها ودقائقها ، محصورة بالحدود ، فى القريب والبعيد ، كحركات الفقيه ابن الحديد ، فإن أيامه على مناكب الأيام أردية شباب ، وفى مفارقتها تيجان نخوة وإعجاب .

وفى فصل منها : [١] (*)

فدونكها عذراء ، محجلة غراء ، كما رفع عنها سجف الإبداع ، وأبرزت فى كئاس الاختراع ، تنظر بعين الغزال روع ، وأويس بعدما أطمع ، نعم ! اتفق من الربيع وقت

(*) هذا الترقيم من وضع الأستاذ جرانخا فى ترجمته المقامة إلى الإسبانية - المترجم .

حلول الشمس في الحمل ، وقام وزن الزمان واعتدل ، وأخذ أذار على ما اعتاد ،
 فحلى الوهاد والنجاد ، وخلع على ظهور المروج ، ضروب الدبايج ، وأثقل صدور
 الأشجار ، بحلى النوار ، وأطبى نفوس الأطيوار ، بنضارة الثمار ، فبعثت أشجانها ،
 ترجع ألعانها ، فما شئت من رمان تملأ كف العميد من أمثال النهود ، تحت القلائد
 والعقود ، وتفتق عن أمثال الجمر ، إن وصفت فكاللثاات الحمر ، أو ارتشفت فكالرصاب
 الخصر أو الخمر ، ولما انتظمت للزمان هذه المحاسن ، حنت نفس الفقيه بسيادتها ،
 إلى كرم عاداتها ، من الإحسان إلى الاتباع ، والتسلية لنفوس الآلاف والأشياء ، فلما
 صفق الديك وصرخ ، واستغفر كل عبد منيب ربه وسبح ، وهم بشن الغارة كمين
 الصبح من المشرق ، واهتز الفجر اهتزاز الرمح في يمين الأفق ، أطلق لسانه الفضيح ،
 بالتهليل والتسبيح ، ثم دعا بماء طهور ، وأفرغه نورا على نور ، فوضأ وجهها وضاء ،
 يملأ العيون بهجة وسناء .

وفي فصل منها : [٢]

وملنا إلى منزل بدوى ، ذى هيئة وذى :

له منزل رحب عريض ، مزرب بأعواد بلوط وطوج منفتل
 ترى بعمر الآرام فى عرصاته وقيعانه كأنه حب فلفل
 فهش وبش ، وكنس منزله ورش ، وصير عياله إلى ناحية ، وجمع أطفاله فى زاوية ،
 وجعل يدور كالخذروف أمام الصفوف ، يتلقى الواحد منا بعد الواحد ، يأخذ بركابه ،
 ويكشر عن نابيه ، ويتمثل :

أخذى كذا بركاب الضيف أنزله ألد عندى من الاسفنج بالعسل
 أو من رغائف كانون ملهوجة أورايب بقبرى جيد العمل
 أو من خوار عجول فى مسارحها أو من ركوب الحمير الفره فى الكفل

ثم مال بنا إلى بيت مكنس ، منوع مجنس ، قد حله حصرا بلدية ، وغشاه بسطا
 بدوية ، ومد فيه شرائط وحبالا ، كأنه يريد أن يخرج خيالا ، وعلق منها غلائل وملاءات ،
 وهمايين وسراويلات ، وكم شئت فى خرق معصفرة ، وعصائب مزعفرة ، حتى المقنعة

والخمار ، والدلال المستعار ، وقد اتخذ في الحائط كوة وثانية ، وملاها حقافا وأنية ، وأودعها من عتاد العروس فاخره ، ومن طيب البادية أوله وآخره ، فقلت : يا صاحب المنزل ، هنيئ وهنيئ ، لقد أوتيت وأوتيت ! وجعلت أرفق عن صبح ، وأقول " متى كان الخيام بذى طلوح " ، من أين للبداوة بهذا الرونق والطلاوة ، وكيف حتى أغرت على حانوت العطار ، ومتى نقل سوق البز إلى هذه الدار ! ؟ لقد قرت بك الأعين ، وسرت الأنفس ، هذا زى العروس فأين العرس ؟ فضحك البدوى ملء فيه ، وتوسمت الازدراء فيه ، وأنشد :

يا أخى نـحـنـ عـلى	أنا نـتـسـاج بدوى
سـاـدة ناس لنا فى	هذه الدنىـا دوى
عندنا إن جاء ضيف	شـبـع جم ورى
وسـرـير حـشـوه	ريش الفـراريـج ، وطى
وكرامات كـثـيرات ،	وهيـئـات وزى

ثم قام من مكانه ، ودعا بصبياناه ، وأغراهم بديك له هرم ، ليذبحه فى طاعة الكلام ، فأجروه لأهم الهاوية من زاوية إلى زاوية ، حتى سقط الديك سقوط طليح ، جسما بلا روح ، فأقبلوا إليه ، متهافتين عليه ، وهو يضطرب اضطراب المخلوق ، ويستغيث بالخالق والمخلوق ، واتفق لفرط خنقه ، ومؤلم تقلقه ، أن عض على أيديهم عضه ، وانتفض منهم نفضة ، وصعد فى بعض الجوائز ، وحمد الله حمد الفائز ، وتمثل :

إذا غـرقت ببـحر	من الردى فـسـاـض
فـلا يـكن بهـلاك	عليك ظنك قـسـاـضى
فليس فى كل وقت	سـسـيف المنيـة مـسـاـضى

وحان وقت الظهيرة ، فصفق بجناحيه ثنتين ، وصرخ صرختين ، واقتدى به المؤذنون ، وتجمهر المؤذنون ، حتى إذا قضيت الصلاة استصرخهم فأصرخوه ، وتواثب إليه السادة والوجوه ، فقال لهم الديك : أيها السادة الملوك ! فيكم الشاب متع بالشباب ، والأشيب نور شبيهه مع الكواكب والأتراب ، وقد صحبتكم مدة ، وسبحت الله

على رؤوسكم مراراً عدة ، أوقظكم بالأسحار ، وأؤذن بالليل والنهار ، وقد أحسنت
لدجاجكم سفادا ، وربيت لكم من الفراريج أعدادا ، فالآن حين بلى فى خدمتكم تاجى ،
أنعى إلى دجاجى ، وتنحى الشفرة على أوداجى ؟ وحين أدركنى الشيخ ، يمزق لحمى
ويطبخ ؟ ! يا كرام من ذل هذا المقام ! وجعلت دموعه تسفح من دمه ، والحزن يطبق
على فمه ، ثم غشى عليه ، فاجتمعت البداوة إليه ، يضربون وجهه بالماء ، ويخلصون له
فى الدعاء ، ثم أفاق من غشيته ، وأنشد :

عــلام يـقـتـل شـيـخ	مـن كـل ذـنـب بـسـرى
مـحـقق ، مـتـحـر	مـسـوـحـحـد ، سـنى
هـل نـص هـذا الكـتـاب	أـو قـسـال هـذا نـبى ؟
لا ذـنـب لى غـيـر أنى	مـؤـذن بـسـوى .

فرقت له أنفس القوم ، وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم ، فقال : ويحكم إن هذا
الديك ذو فخذ وصدره ، وقد أصابتني عليه ضجرة ، ولى فى ذبحه سر ، ولا بد أن
تزين به قدر ، وتضرم تحته النيران ، ويشبع من لحمه الضيفان ، أما ترونه قرّة العين
والقلوب ، سبيكة لجين محكمة التذهيب ؟ وتمثل :

ومن شيمتى مهما تزين منزلى	بضيف أن أقره بأحسن ما عندى
لو أن دمي خمر لرويته به	ولو صلحت كبدى شويت له كبدى
بذلك أوصانى أبى مذعقلته	وقد كان أوصاه بذأ قبله جدى .

فقال الديك : لا أكذب ، الحق طريق مستبين ، واتباعه مروءة ودين ، أما إنه لعلى
خلق عظيم ، كريم ابن كريم ، غير أنه لؤم فى أمرى وأفرط ، وغلط ما شاء أن يغلط ،
أما علم أن هرمات الديوك ، ليست من مطاعم الملوك ، وأنها بالأدوية ، أشبه منها
بالأغذية ؟ وأقسم لو اتخذ برمة فى فؤاد مهجور ، ووضعنى من مثله على تنور ،
لا قضى بى حاجة ، ولا عدم منى نيوا وفجاجة ، وإن له فى بنى ما لا يجده فى ، من
طيب المشم ، ولذة المطعم ، والتواليد لأحمر ما يكون من الدم ، وأنى كالفروج
اسفيداباجا ، لمن أراد أن يعدل مزاجا ؟ ! فزكى قوله ، كل من حوله ، لم يألوه تعظيما ،

واتخذوه من ذلك اليوم حكيمًا ، وصرف البدوي من ألطافه ، ما أحسن به قري أضيافه ،
وختم نوبة بره ، بالرغبة فى بسط عذره ، فسمعنا منه ، ورحلنا سحرا عنه .

وفى فصل منها : [٣]

ولم تزل الجياد تمعج بكلماتها ، والشمس تنتقل فى درجاتها ، حتى أشرفنا على
عين كالدينار ، كأنما هندست بالبركار ، ذات ماء ريان من الشنب والخصر ، وحصباء
كالأسنان ذوات الأشر ، وقد حف بها النبات حفيف الشارب بقم الأمر ، وتزينت
بخضرة كالمرأة الصقيلة طوقت بالزبرجد .

ومنها : [٤]

فأصغيت فإذا بصوت ناقوس ، فى دير قسيس ، وقرية أنة ، كلها حانة ، دار
البطاريق ، وملعب الكاس والإبريق ، سائمتها الخنازير ، وحياضها المعاصير ،
وميائها الأنبذة والخمور ، وشكلها مثلث مسطوح ، هندسته حواريو المسيح ، نباتها
غصون من قدود ، تهتز فى أوراق من برود ، وتثمر رمانا من نهود ، وتفاحا من خدود ،
وعقارب من أصداغ ، وأفاعي من أسورة وعقود ، وفيها مدام من رضاب ، وسقاة من
كواعب أتراب ، وغيد لمهوى قرط ، وارتجاج لكثيب فى مرط ، وجولان لنطاق ، وغصص
لخلخال فى ساق ، وخنث فى ألفاظ ، ومواعيد بألحاظ ، وقلوب تكلف وتشفف ،
ونفوس تنشأ وأخرى تتلف ، فلما أكثر محدثنا بحضرة الفقيه ، من هذا التشبيه ، ومن
هذه المحاسن ، المحركات لكثير من السواكن ، قطبنا له وجوه الاستكراه ، وعضضنا
له على الشفاه ، فبينما نحن كذلك نكثر لفظا ، ونرى الحلول بالمسيحيين غلطا ، إذ
نظرنا إلى أطراد صفوف من أعطاف خنثة ، وخصور هيف ، وشموس وأقمار ، على
أفلاك جيوب وأزرار ، لا سيوف إلا من مقل ، ولا درق إلا من خجل ، ولا عارض إلا من
خلق ، لا صناعة غير تخليق ، ولا اسم غير عاشق ومعشوق ، فتشفع القسيس
بحسن خدودهم ، وأقسم بنعمة قدودهم ، إلا أجزلتم المنة ، وثنيتم الأعنة ، تعريجا إلينا ،
وتحكما فى المال والولد علينا ، فكرمت الشفاعة ، وقلنا السمع والطاعة ، وجلنا جولان
الزنانير ، على هيف الخصور ، ونغص بما بقى فى الطريق ، غص الدماليج بخدال
السوق ، حتى وافينا الباب ، وأنخنا الركاب ، وتولى تولى الحر ، ضروبا من البر ،

وقضانا من الإكرام نافلة وفرضا ، وشددنا الجياد عنه ركضا ، وسرنا حتى رفع لنا
فى طريقنا جدر ، فإذا كنيسة عارية الأطلال من الجمال ، إلا تلة التوسم ، للتخيل
والتوهم ، كالثوب الكريم أخلقه ابتذاله ، أو كخذ الأمر تغشاه سباله ، فهيج ذكرا ،
وأحد فكرا ، فأنشدت :

وكنيسة أخذ البلى منها كما	أبصرت فيئسا فى مغار ينهب
نمت عليها فى السفارة نفحة	من ماء كرم كان فيها يسكب
أهوى إليها بالمطى تحيل	منا برىء والأمسانى تكذب
فتواقف الركبان فى عرصاتها	كل بها متحير ، متعجب
أنى نأتى لابن آدم قسـدرة	حتى استقام ، وتم ذاك المنصب ؟
ومن أى أرض كان رائع مرمـر	كسواعد الغزلان فيها يجلب ؟
كم صباد إبليس بها من تائب	بحبائل ألقى بهن ترهب
وكم ابتنى القسيس فيها منبرا	من جوذر ، وبدا عليه يخطب
سقىا لها من دارغى لم يزل	فيها كريم بالملاح معذب
كلا ، وما زالت نجوم مدامة	فيها بأفواه الندامى تغرب
بئس المصلى إن أردت تعبدا	فيه ، ولكن كان نعم المشرب .

ثم أغذدنا سيرا ، وكأنا ننقر طيرا ، حتى نظرنا إلى السائمة تسرح فى
مروجها ، كالعدارى تميس فى دبابيجها ، كالأضير ، وماء نمير ، ومازلت أروى هناك
بالرائب والميس ، حتى كاد كيائى ينقلب إلى كيان التيس ، ثم رحلنا وتذكرنا الطراد ،
فمشيت الجياد ، وتواثبت أساد ، واستعد بباز وكلاب ، فإذا بحر من برك يخرقه سفين
من برك ، وفى السيور صقور إذا نظرت ، وليوث إذا جردت ، تنظر فى أمثال الدنانير ،
وتتخطف بأشباه المرفهة الذكور ، فأرسلناها إرسال سهام الأحداق إلى قلوب العشاق ،
فلم نر إلا ريشا محلوجا ، ومنسرا يحسن توديجا ، ووردنا ماء فى رقة النسيم ، ولذاذة
بنت الكروم ، فشربنا وطعمنا ، وقرينا سباع الفلاة ، مما فضل عن الكماء ، ونقشت
على مرمرة بيضاء ، ساعة وردنا ذلك الماء .

يارب ماء عازب مجبه
زبرجند جلله مكثسه
إن كان فيما قد مضى موردا
باكرته مع كل ذى هممة
ولغظ الطيسر بأرجائه
فانقض من أيماننا كوكب
مكحل الأفاق ذو منسر
فاستشعر الطير هروبا ، وهل
فصار ما أوسع صحبى قرى
صيد لعمرى لم يعبه سوى

مزن هزيم الودق فى سبب
غشاء ديباج من الطحلب
فللعطاش الأسد والأذؤب
لا يرتضى الأفلاك عن مركب
كلغظ الصببية فى المكتب
ذو ناظر أنور من كوكب
يسترزق الرحمن من مخلب
عن نازل المقدور من مهرب ؟
وفاض فى الأبعد والأقرب
أن لم يكن نقلا على مشرب .

ثم لم نزل نسرى سرى النجوم فى الدياجى ، إذ تلقانا شاب كما ذهب عقيق
خديه ، ونم شاربه بالتذكير عليه ، متقلد حسام كأنما طبع من لحظه لا من لفظه ، على
جواد ظمان الأسافل كخصريه ، ريان الأعالي كردفيه ، تستعيذ عيون البررة فى النظر
إليه ، وتزدحم أطماع الفجرة حواليه :

ذو مقلّة شهلاء رومية
قلت وقد عيب بتثليثه
وذو لسان عسرى مبین
مقال ذى رأى وعقل رصين
يجمع للإنسان دنيا ودين .

فلما بلغنا ، قبل عرف جواده ، وعبراته تنسكب على نجاهه ، قلنا : مالك ،
لا أبالك ؟ فقال : منفلت من السجن ، ، وأبق من الحصن ، وعائذ من ظلمات الغواية ،
بنور الهداية ، ومن ذل عبادة الأوثان ، بعز عبادة الرحمن ، ولى خبر أريد أن أقصه ،
ويمتن الفقيه وفقه الله أن يسمع نصه ، فخرج إليه الإذن ، وقيل له ادن ، فقضى فرض
التحية وناقلتها ، ثم قال : أيها الفقيه ، للأشياء غايات تنتهى إليها ، ومقادير تجرى
عليها ، أما الخلاق العليم ، والفاطر الحكيم ، الذى أسعد قوما بالهداية وأثابهم عليها ،

وأشقى آخرين بالضلالة وعذبهم بها لقد أنحلتني عبادة الطواغيت فعبدت الصليب ،
وقرعت الناقوس ، وفعلت كل ما قرت به عيني إبليس ، قدر لم يكن ليخطئني
ولا يتخطاني ، إلى أن استتقذني ربي وهداني ، وأنا أشهد أيها الأشهاد أن الله إله
واحد ، ليس له ولد ولا والد ، كان ولم تكن الأكوان ، ولا أرض ولا ماء ، ولا دخان ،
مخترع الكل ومُنشئه ، ومعيده ومبدئه ، له المثل الأعلى ، والأسماء الحسنى .

الفصل الرابع

المقامة الدوحية لابن عياض

لكى نقف على تطور فن المقامة فى الأندلس لا يكون من السرف أن نخصص صفحات قلائل للنصوص الموجزة التى احتفظ لنا بأحدها ابن سعيد المغربى فى كتابه «المغرب» .

كاتب هذه المقامة هو محمد بن عياض ، عاش فى القرنين السادس والثانى عشر فى بدايات تبسّم الموحدين السلطان حسب ما نقله إلينا ابن سعيد ذاته بدون تدقيق كثير (١) .

نقل لنا ابن الأبار فى «التكملة» اسمه كاملا : محمد بن عيسى بن عياض (٢) وكلا الكاتبين متفق على كُنيتِه « لأن الكُنية المعروفة لمن يدعى محمدا هى أبو عبد الله » .

يصنّفه ابن سعيد فى « المغرب » بين علماء لبلة ، بينما يضعه فى كتابه « رايات المبرزين » فى القسم المخصص لقرطبة . (٣)

أما الشاعر المصنف المرسى صفوان بن إدريس الذى توفى فى نهايات القرن الثانى عشر فيدعو الكاتب أبا عبد الله بن عياض بالقرطبى (٤) .

وقد دون ابن الأبار النسبتين : القرطبى ، واللبلى ، قائلا : ربما أخذ اسمه من المدينة التى عاش بها ، تلك ظروف يحدثنا عنها - فى الواقع - ابن عياض نفسه فى النص القصير الذى وصل من مقامته .

المعلومات التى فى حوزتنا عن هذا الكاتب نادرة جدا : كان نحويا ، أديبا ، مصدرا للإقراء فى قرطبة ، فى صدر دولة بنى عبد المؤمن ، كما يقول ابن سعيد ، وأنه كان متقدما فى الأدب ، ولاحقا بأفداد الشعراء والكتاب ، حسب ما يقوله ابن الأبار .

ينسب إليه ابن سعيد المقامة المعروفة بالمقامة الدوحية التي تجلّى فيها تأنقه فى الأسلوب ، ومعرفته الواسعة ، وموهبته الفطرية باعتباره كاتباً ، وقد عرفت المقامة كذلك باسم كاتبها : «المقامة العياضية الغزلية»^(٥) ، يشير هذا النعت الأخير إلى أنها ذات موضوع غزلى ، وهو شئ لا نكاد نعرفه بالدقة ؛ بسبب الأسطر القليلة التي وصلتنا من نص المقامة .

والشهرة التي لابد أن يكون قد حظيت بها شخصية معاصرة فى ذلك العهد : محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن عياض المخزومى - وبدون أية أهمية بالنسبة لنا - نسبت إليه هاته المقامة مع مرور الزمن ، وبدون حجة واضحة ، إلا أن لقب العياضية كان من المحتمل بالنسبة له أكثر شهرة ، ولحو هذا الخطأ تصدر للأمر مترجم الاثنين ابن الأبار فى الكلمة بمقال مخصص لهذا الأخير قائلاً : إن نسبة المقامة العياضية له خطأ ، إنما هى لمحمد بن عيسى بن عياض القرطبى^(٦) ، بيد أن حاجى خليفة فى «كشف الظنون» ارتكب الخطأ بتسميته المقامة بالروحانية بدلاً من الدوحية ، وفى النسبة : اللبلى ، ليقول الليثى ، وهى نسبة يراها هو أكثر ألفة^(٧) ، وعن هذه المقامة تقول صديقتى العزيزة راشيل أريى : Rachel Arié (وهو كل ما قالت) عن شرف عياض نفسه (قاضى سبىة المعروف) كتبت رسالة مديح : المقامة العياضية الغزلية بقلم قرطبى عبد الله (هو) محمد القرطبى اللبلى ، وهو شئ لا أساس له (إنها تعرف الخبر اليسير فقط الذى أورده ابن الأبار فى الكلمة) دون ملاحظة سبب التسمية (العياضية) ؛ لأنه كان اسم المؤلف - ابن عياض - الذى أغفلته لكنها تيقنت مع ذلك من الخبر .

يشغل نص المقامة الدوحية أو المقامة العياضية الغزلية الوارد فى المغرب أحد عشر سطراً فقط فى النص المطبوع ، هى بالدقة مطلع المقامة ، وليس فى ذرعنا حين يصمت ابن سعيد ومؤرخون آخرون أن نعرف طول هذه المقامة ، ولا أن نقف على فحواها ، نحاول - فى حدود الطاقة - أن نحلل ما بقى من المقامة ، وهو شئ ليس بهين ؛ نظراً للأسلوب المتأنق ، الغامض عمداً فى هذا الاستهلال ، المقامة هى رواية " ميزان الأشواق ، ومعيار المحبين والعشاق " ^(٨) وهو عنوان مسجوع مختار ليُدل به الكاتب بمهارته فى مادته ، نقف من خلال أسلوبه المعقد المرصع بأسماء وصفات على بداية

مقامته التى بدأت من قرطبة ، جاعلا حجته فى ذلك الحب من طرفه وهو لقينة حسنة المنظر ، وهو شئ - من المحتمل - لا يعدو أن يكون رمزا .

المقامة عبارة عن هروب شرع فيه فى منتصف الليل (وهو رمز متبوع بـرموز أخرى) ، رحلة طويلة جدا دون أن يصادف محطا ينزل به فى أى مكان ، يعتمد هذا الوصف على مصطلحات جغرافية حسية ، يتخللها أو يتشابك بها مصطلحات من جسد المرأة ، الأمر الذى يشكل أيضا تأويلا لتقلبات الجد التى تقف ضده فى النهاية دائما ، يشعر المؤلف بندم - جاء متأخرا - لهجره مدينته الصغرى ، لكنه لم يحاول العودة إليها ؛ لأنه تعلق بهدف مأمول فى مدينة الحمراء " البلدة الحمراء " وإن كان استعماله مجازيا ، إلا أنه العنصر الواقعى الوحيد الذى استخدمه الشاعر : إنه يعنى لبلدة ، يسميها الحمراء مثل حمراء غرناطة حسب ما ندرى فى شواهد معروفة جيدا ^(٩) ، وهى النسبة التى اقترنت بالشاعر : اللبلى .

وصل الكاتب الصعلوك إلى المدينة ، وطفق يبحث كما بحث فى شوق عرضا وطولا فى جولانه الدائم عن أمير يبسط له راحته .

هكذا ينتهى هذا الجزء من المقامة النثرية التى اختارها ابن سعيد ، وفى «المغرب» كما فى «رايات المبرزين» يتبع المقامة بعض أبيات من الشعر يقال إنها بعض من المقامة نفسها ، هى عبارة عن بعض أبيات : ست أبيات فى المغرب وثلاث فى الرايات فقط ، ربما تشكل جزءا من المقامة - كما يؤكد ابن سعيد - لكن - على كل حال - لم توجد فى سياق النص الذى فرغنا من تحليله الآن ، بين هذه الأبيات المختارة لكاتبنا فى « زاد المسافر » بيت واحد من عشرة أبيات حيث انتزعت باقى الأبيات ، ولم يعط صفوان بن إدريس - وهو متأخر قليلا عن ابن سعيد - أدنى إشارة إلى أن الأبيات تشكل جزءا من المقامة ^(١٠) ، ولذا استغنى عن ذكرها فى هذا المقام .

هوامش

- (١) المغرب ج ١ ص ٢٤٤
- (٢) التكملة ج ١ ص ٢٣٣ ترجمة رقم ٧٦٢ .
- (٣) رايات المبرزين . النص العربي ص ٤٦ ، والترجمة الإسبانية ص ١٨٩ - الفقرة ٦٢ .
- (٤) زاد المسافر ص ٩٥ ترجمة رقم ٤٨ .
- (٥) الخبر رواه ابن الأبار ، التكملة المكان المذكور سابقا .
- (٦) التكملة ج ١ ص ١٥٥ ترجمة رقم ٥٤٤ .
- (٧) حاجي خليفة . كشف الظنون . طبعة . ج . فلوجيل (Lexicon Biblico = Graphicum et Encyclopaedicum, Leipzig - London, 1835 - 1858), 6,65,N°12.723. واستشهد بها غرثيه غومث في رايات المبرزين . الترجمة . ص ١٩ ، هامش ٤٢ .
- (٨) R. Arié, Notes sur Lamaqáma Andalous. pp. 205 - 206. Ynota 28. ويرجع اللبس أيضا إلى ما ذكرته قبل ذلك (ص ٢٠٤) عن مقامة أخرى (لم تصل إلينا) كتبها في مدح القاضي عياض أديب وادي أش محارب بن محمد بن محارب (ليس محمد بن محمد) ويرجع الخبر أيضا إلى ابن الأبار (راجع التكملة ج ١ ص ٤٠٧ ترجمة رقم ١٧٧٣) ، عن محارب بن محمد انظر ابن الأبار نفسه في كتابه تحفة القادم ، في المشرق (٤٩) عام ١٩٤٧ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ ، حيث يوجد خمسة عشر بيتا في قصيدة في مدح عياض مأخوذة من المقامة .
- (٩) E. Lévi Provençal, La Péninsule Ibérique au Moyen âge d'après le كتاب الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميري : ليدن سنة ١٩٣٨ . الترجمة ص ٢٠٣ ، هامش ٤ .
- (١٠) زاد المسافر ص ٩٥ ، ٩٦ ، الأبيات الستة في المغرب بهذا الترتيب ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١٠ كما جاء في زاد المسافر ، وترتيب الأبيات في رايات المبرزين ١ ، ٢ ، ٩ ، وهذه الأبيات الأخيرة ترجمها غرثيه غومث في أعلام ص ١٨٩ .

فقرة من مقامته

قال ميزان الأشواق ومعيار المحبين والعشاق :

نبت بى معاهد الأحباب ، فى ريعان الشباب ، لقينة أزكت نيرانها ، وألقت بمسقط
الرأس جرانها ، فامتطيت الليل طرفا ، وفرقت السنان طرفا ، وجعلت أمسح الأرض
نجدا ووهدا ، وأستطعم الآمال صابا وشهدا ، كالعنز لا يستقر بمنزل ، ولا وجد عن
رحلة بمعزل ، أصد من حضور القيعان ، إلى روادف الرعان ، وأنحدر من متون
الضباب ، إلى بطون اليباب ، حتى عجمتني أنياب النوائب ، وتقاذفت بى صدر
المشارك إلى أعجاز المغارب ، وقد حلت من الاغتراب بين الذرة والغارب ، وكنت أكلف
بالبلدة الحمراء كلف الكمى بالصعدة السمراء ، وأحن إلى جوارها ، حنين الناقة إلى
حوارها ، للذى اشتهر من حسننها وطيبها وخصبها ، واختيالها فى حلل شربها
وعصبها ، فهدانى إليها حادى الاغتراب ، وتطاوحت بى إليها طوائع الاضطراب ،
ولا أمل إلا اعتلاق خل ظريف ، والإصغاء إلى نبا طريف ، وأنشد فيها :

عربد بالهجر والعتاب	نشوان من خمرة الشباب
طفأ على ريقه حباب	فاحتجب الخمر بالحباب
أنكر إلا سقعام طرف	وأى ســـــــــيف بلا ذباب
إن أنا لاحظتـــــــــه توارى	من دمة العين فى حجاب
أبصرته جدولا وورقا	من دمع عيني وانتسحابي
لم تستسبق سلوة وحب	إلا وطرف السلو كسابي (*)

(*) أسقط المؤلف ترجمة هذه الأبيات إلى الإسبانية ، وقد رأينا إضافتها ، لورودها فى الأصل العربى -
المترجم .

الفصل الخامس

وصف القلم لابن غالب الرصافي

فى الفصل الأول من هذا الكتاب ترجمة لرسالة السيف والقلم لأبى حفص بن برد الأصغر ، ولدى الإشارة إلى الاحتذات التى اعتقدت وجودها لهذه الرسالة المذكورة فى الأدب العربى - وكذلك فى الأدب العبرى - كنت أعنى نصا للشاعر ابن غالب الرصافى ^(١) سوف نراه الآن .

موضوع السيف والقلم - فضلا عما سجلته هناك فى الفصل المذكور - يبدو فى الأدب العربى بكثرة ملحوظة ، سواء فى الأدب المشرقى أو المغربى ، وإلى أن أقرر نشر دراسة - لوتيسر ذلك - عن تلك الأعمال التى بينها صلات - وهى فى معظمها لم تر النور حتى الآن - رأيت من المناسب أن أقدم - سلفا - هنا نشر نص موجز للرصافى حول هذا الموضوع ، وترجمته ؛ ليس لاعتقادي بأنه جدير أن يرى النور قبل رصفائه ، بل لإسبانية صاحبه .

كنت قد جمعت منذ أمد بيانات وافية لدراسة حياة هذا الشاعر البنسى ^(٢) الذى طالما اکتوى بنار الحنين لوطنه ، حيث ودع هناك صباه ، توفى (لسنا ندرى تاريخ مولده) فى سنة ٥٧٢ = ١١٧٧ ، وفى اللحظة الأخيرة استغثت عن ضم ترجمته لثلاث أبالغ فى طول هذه الصفحات ؛ ولأن ترجمته نشرها حديثا الدكتور إحسان عباس محقق ديوان هذا الشاعر ^(٣) (*) .

تضم «الإحاطة» لابن الخطيب (مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٧٣) فضلا عن احتوائها مجموعة طيبة من شعر الرصافى - بعض مقامته فى وصف القلم ، وهى

(*) ترجمت هذا الديوان إلى الإسبانية صديقتى الباحثة ماريا تيريسا جارولو المدرسة بجامعة مدريد المركزية وعثرت على بعض قصائد لم يعثر عليها الدكتور إحسان عباس ، وقدمت للديوان بدراسة جيدة - المترجم .

موجودة كلها فى مركز الإحاطة (مخطوط المكتبة الأهلية بباريس رقم ٣٣٤٧) ، وعلى أساس هذين المخطوطين فإننى أنشر هذا النص القصير .

إن الوصف كما هو لا يظهر فى النص اللهم إلا إذا كان قصير الأنابيب هو الوصف الذى جاء فى البيت الأول من الأبيات الثلاثة التى تبدأ بها الرسالة ، والبقية تعداد لمناقب القلم ومنافعه بمصطلحاته المعهودة المبالغ فيها ، والإشارة إلى الأسلحة التى ينافسها القلم - فى تفوق - جعلتنى ألحق هذه الرسالة أكثر مما كان الحال مع رسالة ابن برد المذكورة آنفا ، مع نص الكاتب ذاته الذى يصف فيه القلم والدواة ، والكتاب ، والذى ترجمته أيضا فى الفصل المذكور ^(٤) ، فى جمل منقولة حرفيا على وجه التقريب ، وأفكار منقولة كذلك ، وإن كان الرصافى يؤكد أن القلم هو مفتاح الثراء .

هوامش

(١) سبق فى ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) وليس قرطبيا كما أكد : ١ . ر . نيكل فى كتابه الشعر الأندلسى . ص ٣٢٦

(٣) ديوان الرصافى البلنسى أبى عبد الله محمد بن غالب . بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٠ ، ليس بالدقة ديوان الرصافى بل هو جمع للقصائد والأبيات التى عثر عليها المحقق فى المنتخبات الشعرية ، وفى بعض التواليف التاريخية والأدبية التى توجد بالمصادفة ، لم يستخدم المحقق - للأسف - الفصل الذى ترجم له ابن الخطيب فى الإحاطة ، حيث توجد تفصيلات وروايات هامة ، وأهم من ذلك أن ابن الخطيب قد احتفظ بقصائد مطولة أكثر من أى مؤلفات أخرى عن الشاعر ، مثال ذلك القصيدة رقم ١٨ فى طبعة بيروت (ص ٦٠ ، ٦١) وهى مراقبة للفقيه ابن أبى العباس الجذامى تحتوى على ثمانية أبيات ، بينما هى فى الإحاطة - مخطوط الاسكوريال - (ورقة ٦١ ، ٦٢) تسعة وأربعون بيتا ، وقصيدة أخرى يتغنى فيها الشاعر ببلنسية رقم ٢١ فى طبعة بيروت (ص ٦٨ ، ٦٩) تحتوى على ثمانية عشر بيتا ، بينما فى الإحاطة خمسة وستون بيتا (ورقة ٦٠ ، ٦١) .

(٤) راجع ما سبق ص ٢٣ ، ٢٤ .

قال من مقامة فى وصف القلم " من المتقارب " :

قصصير الأنابيب لكنه	يطول مضياء طوال الرماح
إذا عسب للنقش فى دامس	ودب من الطرس فوق الصفاح
تجلت به مشكلات الأمور	ولان له الصعب بعد الجماح

فلولاه لغدت أغصان الاكتساب ذاوية ، وبيوت الأموال خاوية ، وأسرعت إليها
البوسى ، وأصبحت كفؤاد أم موسى ، فهو لا محالة تجرها الأربح ، وميزانها الأرجح ،
به تدر ألبانها ، وتثمر أفنانها ، ويستمر إفضالها وإحسانها ، فهو رأس مالها ، وقطب
عمالها وأعمالها ، وصاحب القلم قد حوى المملكة بأسرها ، وتحكم فى طيها ونشرها ،
فهو قطب مدارها ، وجهينة أخبارها ، وسر اختيارها واختبارها ، ومظهر مجدها
وفخارها ، يعقد الرايات لكل وال ، ويمنحهم من المبرة كل صافية المقييل ، ضافية
السربال ، يطفئ جمرة الحرب العوان ، ويكابد العدو بلا صارم ولا سنان ، يقدر
المفاصل ، ويتحلل الأباطح والمعازل ، ويقمع الحواسد والعواذل .

الفصل السادس

بيع الأمة فى سوق الرقيق عند أبى البقاء الرندى

من بين النصوص الكثيرة التى جمعها ابن الخطيب فى مؤلفه الضخم «الإحاطة» نصوص تجعل من هذا المؤلف كتاب منتخبات جيد لكتاب وشعراء ، وهذا شىء ثمين بالنسبة لما يتعلق بالفترة الأخيرة فى حياة إسبانيا الإسلامية التى تخلو من مصنفات من هذا النوع بصورة ملحوظة للغاية ، من بين هذه النصوص نصوص كثيرة تستحق عناية ترجمتها ، ولأن الإحاطة مازالت - تقريبا - مخطوطة ^(١) ^(*) فذلك سبب يجعل مهمة تقييم الأدب الأندلسى فى حقبة الأخيرة لا تزال تنتظر من يقوم بها .

جزء ضخم من الإحاطة - كما هو معلوم - قد انتقل على شكل موجز صنفه المقرئ فى مؤلفه الكبير «نفح الطيب» ، الذى يشكل الجزء الثانى منه - فى الواقع - بعضا من نتاج أديب لوشة وسياسيها ، هذا الجزء الثانى فى حاجة كذلك إلى طبعة محققة ^(٢) ، وقد قام البعض بدراسات ، وإحداها مثلا ذات قيمة ضخمة عن ابن زمرك قام بها دون إميليو غرثيه غومث ^(٣) ، وإذا كان هذا ممكنا فيما يتعلق بالشعراء فإنه ليس كذلك بالنسبة للناثرين ، فواضح أن منتخبات لشاعر ما - حتى وإن كانت موجزة - فإنها من الممكن أن توقفنا على قيمته ، وقد جمع المقرئ مادة طيبة لدراسة كثير من هؤلاء الشعراء ، وفيما يتعلق بالناثر ، فإن المقرئ - مع ذلك - إما أن يدرج فقط نصا مختصرا جدا يختاره بضرية حظ ، أو أنه يقتصر على القول بأنه قد صرف النظر عن إدراج هذا أو ذاك لطوله .

(*) نشرها نشرة رديئة الأستاذ عبد الله عنان ، وتحتاج إلى تحقيق آخر ، وقد صححت بعض الأخطاء فى مقال من مئة صفحة ينشر فى مجلة «أوراق» بالمعهد الإشباني العربى لهذا العام - المترجم .

أمدتني القراءة الفاحصة لمخطوط الإحاطة الموجود في الاسكوريال ببعض النصوص الهامة غير الموجودة في « نفح الطيب » ، وهذه الصفحات التالية مخصصة لدراسة أحد هذه النصوص .

أبو البقاء الرندي :

أحد الشعراء الأندلسيين الذين يحظون بشهرة ضخمة بين العرب ، وأحد المعروفين جدا في وطنه هو صالح بن يزيد بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف ، وهذا الاسم بطوله لا يفضى إلى شيء إذا لم نضيف إليه أنه اسم الشاعر الذي يقترن في كل دراسات تاريخ الأدب الإسباني بشاعر إسباني مشهور هو خورخي مانريكي ، أقصد - وهذا واضح - أبا البقاء الرندي المعروف باسم Abulbeca De Ronda على أشهر التسميات الموضوعية له ، وقصيدته النونية التي يبكي فيها ضياع قرطبة وأشبيلية وبلنسية ومدن أندلسية أخرى قد استولى عليها النصارى ، والتي ترجمها إلى الإسبانية دون خوان باليرا (عن ترجمتها الألمانية التي اضطلع بها شاك) في البحر نفسه الذي نظم عليه خورخي مانريكي قصيدته في رثاء والده دون رد ريجو (*) ، حملت هذه النونية باليرا على أن يؤكد أن خورخي مانريكي قد قلد شاعر رندة (٤) ، نقض هاته المقولة مينندث إي بلايو مبرهنا على أن المسألة مجرد تشابه وقع عن طريق المصادفة زاد منه - بالذات - كون الترجمة الإسبانية للقصيدة قد جاءت في البحر الذي نظم عليه مانريكي (٥) ، أما مؤرخو الأدب الإسباني فقد أخذوا هذه الرواية الطريفة ، فيذكرون دائما شاعر رندة عند الحديث عن خورخي مانريكي .

كنا - حتى عهد قريب - لانكاد نعرف شيئا عن أبي البقاء ، حتى لم تكن لدينا فكرة دقيقة عن الحقبة التي عاش فيها ، لا توجد ترجمته في « نفح الطيب » للمقرئ ، ولا في « أزهار الرياض » للمؤلف ذاته ، بالرغم من أنه ذكر قصيدته النونية في المؤلفين كليهما ، ربما كان هذا سببا في الغموض الذي اكتنف هذا الشاعر ونظرا لأن شاعرا

(*) ترجمنا هذه القصيدة إلى العربية ، ونرجو أن نصوغها شعرا في البحر الذي نظم منه الرندي قصيدته - المترجم .

مجهولا متأخرا أضاف أبياتا جديدة إلى قصيدته ، فقد وصل الأمر كذلك إلى أن أكد البعض أنه مات في مطلع القرن السادس عشر (٦) .

نقّب - عرضا - أستاذى دون إميليو غرثيه غومث - عند دراسته (*) للشاعر الشريف الطليق (٧) عن تاريخ مولد أبى البقاء ووفاته [٦٠١ - ٦٨٤ = ١٢٠٤ - ١٢٨٥] وذكر أن أفضل ترجمة له موجودة فى «الإحاطة» ، وأورد إشارات دقيقة إلى عدة مخطوطات منها (٨) ، هذا الخبر الذى نشر عام ١٩٤٤ (٩) قد مر مرور الكرام - بصفة عامة - دون ملاحظة من الذين اهتموا بالشاعر (١٠) ، وجعل من غيرهم وكأنه اكتشف بحرا كالبحر المتوسط .

فى الدراسة ذاتها التى أشرت إليها الآن أشار غرثيه غومث - فضلا عن ذلك - إلى مقال بن حمودة الذى أشرت إليه أنفا (١١) ، الذى إن لم يضيف أى بيان عن شخصية أبى البقاء ، فإنه أوماً على الأقل إلى أنه ناظم القصيدة النونية ، ومؤلف «الوافى فى نظم القوافى» الذى كان يعتبر أثرا ذا دلالة على ذلك (١٢) .

مقال .حديث وهام للعلامة المغربى سيدى عبد الله كنون يدور بالذات حول «الوافى فى نظم القوافى» (١٣) يعانى فى إغفاله مقال بن حمودة (والمخطوطات التى رجع إليها) ، ومقال غرثيه غومث (ويتحدث عن مخطوط آخر «للوافى» موجود فى مجمع التاريخ الملكى فى مدريد) (١٤) كان من الممكن أن يقفه على مقال ذاك ، ولهذا السبب نفسه يبدو أنه لا محل للإعجاب الذى نشأ فى نفس عبد الله كنون بالمجهود الذى بذله زميله المصرى عبد الله عنان لتحديد الحقبة التى عاش فيها أبو البقاء ، والتى يحددها بأنها كانت فى النصف الثانى من القرن السابع = الثالث عشر ، وغريب - من جانب آخر - برغم وقوفه على ترجمة الشاعر الموجودة فى الإحاطة والتى سنتحدث عنها الآن ، وبرغم أنه نقل قدرا طيبا فى مقاله من أخبار ابن الخطيب الطويلة حول الشاعر ، وكذلك نقله قدرا كافيا فى القصائد الموجودة فى الترجمة ذاتها ، غريب أن يخفى عليه تاريخ مولد أبى البقاء وتاريخ وفاته وهما موجودان فى نهاية ترجمته .

(*) ترجم هذه الدراسة الدكتور الطاهر مكى ، وعثر على قصائد للشاعر لم يعثر عليه الأستاذ غومث - المترجم .

خبر أبى البقاء الموجود فى « الإحاطة » :

فى مخطوط « الإحاطة » بالاسكوريال (رقم ١٦٧٣) (١٥) ما بين صفحات ٢٠٧ - ٢١٢ فصل خصصه ابن الخطيب لأبى البقاء الرندى ، وإذا كانت هذه الترجمة لم يستخدمها أحد قننى دراسته عن الشاعر - وإن كانت غير مجهولة - فقد استخدمها الغزيرى (١٦) ، ومرد ذلك عدم معرفة دورانها حول الشاعر أبى البقاء ، فهذه الكنية لا تظهر فى أخبار ابن الخطيب ، ولا تبدو كذلك فى تضاعيف شعره الذى اختاره ، وهو شعر تقف منه على مكانته شاعرا مجيدا ، ولا بيت واحد من قصيدته النونية تلك القصيدة التى خولت له شهرة بالغة ، لم يظهر عنها أدنى إشارة .

يبدأ ابن الخطيب (١٧) كعادته دائما بذكر نسبه كاملا ما وسعه ذلك ثم يذكر حاله ومشايخه ، وتوالياً ، ودخوله غرناطة ، ثم يتطرق بعد ذلك للحديث عن شعره مع ذكر نماذج كثيرة له ، ثم نثره ذاكرة النص الذى نحن بصدد دراسته ، ليخلص إلى تاريخ مولده ووفاته .

يظهر الاسم هكذا : صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبى القاسم بن على بن شريف النفزى (١٨) ، ويكنى أبا الطيب فى أهل رندة ولذا ألحق به مركز الإحاطة نسبة الرندى أيضا (١٩) .

تلك الأخبار القليلة التى لدى ابن الخطيب عن هذه الشخصية استقاها فيما يبدو من مصدرين : ابن الزبير وابن عبد الملك ، وكلاهما يمدح فى مبالغة صالح بن يزيد ، يقرظه ابن الزبير بهذه الكلمات :

شاعر مجيد فى المدح والغزل وغير ذلك ، وعنده مشاركة فى الحساب والفرائض ، نظم فى ذلك ، وله تواليف أدبية ، وقصائد زهدية ، وجزء على حديث جبريل عليه السلام ، وغير ذلك مما روى عنه ، وكان فى الجملة معدودا فى أهل الخير ، وذوى الفضل والدين ، تكرر لقائى إياه ، وقد أقام بمالقة أشهر أيام إقرائى ، وكان لا يفارق مجالس إقرائى ، وأنشدنى كثيرا من شعره .

ويقول عنه ابن عبد الملك ما يلي : (٢٠) وكان خاتمة الأدباء بالأندلس بارع التصرف فى منظوم الكلام ومنثوره ، فقيها حافظا فرضيا (٢١) ، متفنتا فى معارف جليلة ، نبيل المنازع متواضعا ، ومقتصدا فى أحواله ، وله مقامات بديعة فى أغراض شتى ، وكلامه نظما ونثرا مدون .

على التوالى يذكر ابن الخطيب طائفة شيوخه : أبو الحسن والد الشاعر ، وأبو الحسن الدباج (٢٢) وأبو الحسن بن الفخار الشريش (٢٣) وأبو الحسن بن قطرال (٢٤) وأبو الحسين بن زرقون (٢٥) وأبو القاسم بن الجد (٢٦) .

ثم يعدد فيما بعد تواليفه التى لا يظهر بعضها فى الاستشهادات التى ترجمناها فى السطور السابقة : ألف جزءا على حديث جبريل ، وتصنيفا آخر فى الفرائض وأعمالها ، وآخر فى العروض (٢٧) ، وتأليفا فى البلاغة تحدثنا عنه أنفا بعنوان «الكافى فى علم القوافى» (٢٨) إلى جانب كتاب مسهب آخر بعنوان «روضة الأنس ونزهة النفس» اختار منه ابن الخطيب النص الذى أورده للدلالة على نثر أبى البقاء ، وأنشره محققا فى نهاية هذا الفصل .

لا نكاد ندرى شيئا عن حياة الكاتب الطويلة خلاف الأخبار الأولية : تاريخ مولده (المحرم ٦٠١ - سبتمبر ١٢٠٤) وتاريخ وفاته (٦٨٤ = ١٢٨٥ - ١٢٨٦) ، يقول ابن الخطيب إنه كان كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها ، يسترفد ملوكها ، وينشد أمراءها ، وإحدى هذه القصائد - وهى معارضة لقصيدة ابن هانىء - نظمها باقتراح من السلطان - لا ندرى أى سلطان - وقد أوعز إليه ألا يخرج من البساتين الملكية حتى يكملها .

ثم يعرض ابن الخطيب رأيه فيه بشاعرا ، وهو رأى متزن سيجعلنى أعود لدراسة هذا الجانب منه ، يقول ابن الخطيب : " وشعره كثير سهل المأخذ ، عذب اللفظ ، رائق المعنى ، غير مؤثر للجزالة " (٢٩) .

تضم الإحاطة بعد ذلك نماذج من شعر أبى البقاء ، بعضها - وهو أطولها - قصائد المدح ، وفى المختارات القصيرة موضوعات متنوعة : الليل ، والسهاد ، وفى مكارم الأخلاق : الذكاء ، والصبر ، والكرم ، بيد أنه قبل أى شىء تبرز شخصيته

وأصالته فى قصائد الوصف ، يصف الطبيعة : البحر ، والأنهار ، والحرب : الجيش ، والرمح ، والسيف ، وله مقطوعة أخرى يوازن فيها بين السيف والقلم - وهو موضوع خصب فى الأدب الأندلسى (٣٠) - والمقص ، والفاكهة : الأترج ، والرمانة ، والجزر ، والجوز ، ونوع واحد من الزهر : الخيري .، يورد ابن الخطيب أيضا من خلال سند معروف تماما شاهدا كتبه الشاعر لمقبرته هو ، يقول من الطويل (٣١) :

خليلى بالود الذى بيتنا اجعلنا
إذا مت قبرى عرضة للترحم
عسى مسلم يدنو فيدعو برحمة
فإنى محتاج لدعوة مسلم .

أما ترجمة أبى البقاء الموجودة فى «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشى فى مجلد نشر حديثا (٣٢) فإنها لا تضيف شيئا ذا أهمية خاصة عما أورده ابن الخطيب ، ومرد ذلك - فى جانب منه - أن كثيرا مما يقوله ابن الخطيب - وإن كان لا يذكر ذلك أكثر من مرة واحدة - قد أخذه من ابن عبد الملك المراكشى ، فمثلا عند ذكره لشيوخ أبى البقاء ، وذكره تواليفه ، ومن المحتمل أن أخبارا آخر مثل تاريخ مولده ووفاته تأتى من الذيل ، بيد أنه ليس فى ذرعنا التحقق من ذلك ؛ لأنه توجد فيه ثغرة - لا نعلم مداها - تجعل المقال المخصص لشاعر رندة غير كامل ، والقصائد المذكورة - والقصيدة النونية ناقصة بالطبع ، وكذلك كنية أبى البقاء - مأخوذة من مؤلفه «الوافى» الذى ذكرته مرات متعددة (٣٣) .

عثرت على بعض بيانات أخرى فى مصنفات آخر ، موجودة مثلاً فى «نفح الطيب» (٣٤) ، لا تضيف شيئا ذا بال عما قلته ، فصرفت النظر كما صرفته عن دراسة ما يتعلق بالقصيدة النونية - فقد صنعه عبد الله كنون (٣٥) من قبل - ثم إنها ستطيل هذا التمهيد دون مقتضى ، لننتقل إلى الكلام الذى يهمنى أكثر : ما ذكره ابن الخطيب عن كتاب «روضة الأنس» .

رسالتنا كتاب الأنس :

من « روضة الأنس ونزهة النفس » الذى يمكن أن يعتبر مصنفاً أدبياً ذا طابع شخصى إلى حد كبير حسب هذا النموذج - نقل مؤلف الإحاطة فقرة تتألف من جزأين :

أولاهما : رسالة وجهها الكاتب أبو بكر البرزعى (٣٦) إلى صاحبنا صالح بن يزيد يقص عليه مروره بسوق الرقيق ، وفيها تعرض للبيع جارية بارعة الحسن ، موصوفة بدقة ، وبعد مزاد حاد ، انتهى بها الأمر إلى يد فتى ثرى ، ويصف فيها الحزن الذى أعقبه هذا فى نفس الكاتب الذى لم يستطع شراءها لنفسه

ثانيتها : رد ابن يزيد الذى على النمط الفكاهى نفسه - يوصيه بنصائح طيبة ، ويستغل المناسبة بدوره ليبدع فى وصف جارية أخرى تشبه الأولى جمالا .

من المحتمل أنها ليست عبارة عن ابتداع من بنات أفكار الكاتب ، فإن كلا الكاتبين قد تبادلا تلك الرسائل حقيقة ، ومهما بدأ لنا هذا الموضوع مبتذلا ، فعلى أن نعتبره ذريعة بسيطة ليس إلا ؛ كى يمارس رجلا من رجال الآداب - فى إلحاح - ويفرغا معارفهما التى يحوزانها فى اللغة والأدب فى موضوع تحريرى بسيط ، المهم فيه قبل كل شىء طريقة عرضه ، ويحتل الشكل فيه مرتبة أكبر من المضمون .

هذا النوع الأدبى الذى هو عبارة عن تنويعات لموضوع واحد ، وإن كان الموضوع المقترح باليا إلى درجة بعيدة ، فإنه يجرى ويمارس إلى جانب أنماط كثيرة أخرى فى الأدب العربى ، وفى الأدب الأندلسى أيضا ، وقد راق لابن بسام أن يجمع - سواء شعرا أو نثرا أو مزيجا من كليهما - شيئا غير قليل من أعمال معاصريه .

كان وصف المرأة ومحاسنها الجسدية - أكثر من وصف خصالها الخلقية - أحد الموضوعات اللازمة - على الدوام - للأديب العربى ، كتب نثرا أو نظم شعرا بقصد جمالى محض ، أو بذىء صراحة ، سواء استخدم أسلوبا جزلا أو أسلوبا سهلا يسيرا فى لغة بسيطة يستطيع الجميع فهمها ، وبما أنه لا يستطيع أن يكون أقل من هذا ، فقد ابتدع حول هذا الموضوع سلسلة من الأفكار المطروقة مازالت حتى الآن شائعة فى الشعر العربى الحديث على الرغم من تأثير الشعر الأوروبى ، فإن هذه الأفكار ما تزال عملة شائعة التداول قانونا .

لعلى أقول إذا كان التصوير الإنسانى محرما فى الإسلام ، وقد حل محله هذه اللوحات التى تقوم فيها الكلمات مقام الألوان ، فإن الصفحات التى أنشرها مترجمة فى نهاية هذا الفصل - محذوفا منها الجزء الدلالى - ربما تجد شبيها لها فى

اللوحات النسائية العارية الرائعة فى عصر النهضة ، وبالنسبة لنا فإنه لا يمثل شيئا ، فاضحا تأمل لوحة من تلك اللوحات التى تمثل فيها المرأة موضوعا فنيا محضا ، وتمرينا لازما يبرز فيه الفنان مقاييس هذا الجمال ؛ فإن شيئا شبيها بهذا قد حدث فى الأدب العربى ، ولذا لم يبال هذان الأديبان بإدخال هذا الموضوع دون المجازفة بشهرتهما رجليه صالحين (٣٧) ، ولذا فإن صالح بن يزيد لم يجد أى حرج فى ضمه إلى مؤلفه الذى يصنعه بين يدي قرائه ، ولنعترف أيضا أنه لا يكاد - على وجه العموم - يوجد شئ يخدش ذوق القارئ الأوروبى أو يخجله (٣٨) ، وربما كان ذلك أيضا لأن هذا الرسم منزوعة عنه صفة التشخيص المحدد فى هذا وذاك .

أعتقد أن هذه الصفحات تصلح للتعمق فى الموضوع ، ولن ألق هذا الآن ؛ فإن " دامسو ألونسو " قد عالج فى مقاله الموحى " الحسناء عند خوان رويث كلها مشاكل " والتى تستطيع - إلى حد ما - أن تصلح لإتمام الموضوع أو منحه مظهرا جديدا (٣٩) .

يحتوى شكل الرسالة عند البرذعى على نوع من المناظرة مع المقامات المشرقية ، وهو نوع له فى الأندلس طابع متباين إلى حد بعيد ، الروح الفكاهية التى يستعرضها الكاتب تفضى به فى نهاية الرسالة إلى أن يطلب من صديقه الموجه إليه الخطاب أن يشتري له جارية ، ويتابع متعمدا وساخرا صيغة قصائد المدح التى يطلب فيها الشعراء صلاتهم ، والتى عند ابن قزمان قد بلغت أقصى درجات الوقاحة والسفور ، نفس الطريقة انتقلت إلى النثر المسجوع الذى نجد منه شاهداً متأخراً فى تصنيف مؤلف مالقى هو ابن المربع الأزدى (٤٠) .

هوامش

- (١) المجلدان المنشوران بالقاهرة سنة ١٣٣٧ هما موجز فحسب للعمل كله ، وهما بعيدان عن أن يمثلتا طبعة مقبولة ، وطبعة المؤلف كله التي بدأها العلامة المصري السيد عبد الله عنان لم تتجاوز الجزء الأول الذي ظهر منذ عشرين سنة ، أما طبعة دار المعارف بالقاهرة - سلسلة ذخائر العرب فقد ظهرت بدون تاريخ ، ومقدمة الناشر مؤرخة في أغسطس سنة ١٩٥٥ .
- (٢) توجد طبعات شرقية متعددة : بولاق ١٢٧٩ ، القاهرة ١٣٠٢ ، وطبعة القاهرة ١٣٦٩ = ١٩٤٩ لحبي الدين عبد الحميد ، وليست أفضل من سوابقها .
- (٣) ابن زمرك شاعر الحمراء . محاضرة ألقاها غرثيه غومث في مجمع التاريخ الملكي بمadrid سنة ١٩٤٣ ، وأعاد نشرها في كتابه خمسة شعراء مسلمون ص ١٧١ - ٢٧١ ، وقد نشرت جمعية أصدقاء الحمراء طبعة جديدة تكريماً للمؤلف عند إحالته للاستيداع من عمله الجامعي (غرناطة ١٩٧٥) .
- (٤) أدولفو بريكو دي شاك " الشعر والفن العربي في إسبانيا وصقلية " ترجمة خوان باليرا ، وأستعين لعدم عثورى على طبعة أكثر شعبية - بطبعة دار ثناتورو للنشر . المكسيك ١٩٤٤ ، والمرثية موجودة في صفحات ١٣٠ - ١٣٦ ، وقد رأى المترجم أن خورخي مانريكي " لابد أن يكون قد عرف قصيدة شاعر رندة واحتذى حذوها " هذا الرأي موجود في ص ١٣٠ - ١٣١ ، (ترجم صديقي وأستاذي الدكتور الطاهر مكى كتاب ف . شاك ، ونشر الجزء الأول منه ، والجزء الثاني قيد الطبع الآن في دار المعارف - المترجم) .
- (٥) راجع م . مينندث بلايو " تاريخ الشعر الإسباني في العصور الوسطى " طبعة أعدها وعلق عليها : أ . بونيه وسان مارتين . ج ٢ . مدريد ١٩٤٤ ص ٤٠٥ - ٤٠٨ .
- (٦) بواسطة الأب شيخو في مؤلفه " شرح مجاني الأدب " . بيروت . ج ٢ . سنة ١٨٨٨ ص ٨٥٢ . ذكره أحمد بن حمودة في مؤلفه " الوافي في نظم القوافي " لأبى البقاء بن شريف الرندى المنشور في Mélanges offerts à Gaudefroy - Demombynes par Ses Amis et Anciens Elèves, El Cairo 1935 - 45, pp 189-195. CF.P 192 Y Nota 8.
- (٧) إميليو غرثيه غومث . الشريف الطليق وديوانه في كتابه " خمسة شعراء مسلمون " ص ٦٩ - ٩٢ .
- (٨) المرجع السابق ص ٩٢ هامش ٢٥ .
- (٩) نُشر المؤلف المذكور للمرة الأولى في مجلة الاسكوريال مارس ١٩٤٢ ص ٢٢٣ - ٢٤٠ لكن الملحق - حيث ظهر فيه هذا الخبر - أضافه المؤلف في الطبعة الجديدة لكتابه " خمسة شعراء مسلمون " .
- (١٠) مثلاً ، أنخل جوتشالت بالنيثا . الأدب الأندلسي ط ٢ المنقحة برشلونة سنة ١٩٤٥ ص ١٠٥ - ١٠٧ ، وأ . نيكل : الشعر الأندلسي ص ٣٣٩ حيث يقول : " The Exact Dates of Al-

Rundi Are ont Known " وخوان بيرنيت فى كتابه المنشور مؤخرا " الأدب العربى " برشلونه ط ١ بدون تاريخ مدون (لكنه نشر عام ١٩٦٦) يشير فى الموجز الذى تناول فيه أبا البقاء إلى سنة وفاته .

(١١) سبق هذا فى ص ١٤٤ هامش ٦ .

(١٢) أقول إنه كان إشارة ؛ لأن كتاب الوافى مذكور بنسبته إلى مؤلفه عند بروكلمان وجمال ملحق ٢ (١٩٣٨) ص ٩٢٥ بين المؤلفات اللغوية ، وفى الملحق ١ (١٩٣٧) ص ٨٦٠ يأتى كذلك الرندى مذكورا بأعماله فى الرياضة ، ويكنى أبو البقاء " الطيب " مع ذكر سنتى المولد والوفاة .

(١٣) أبو البقاء الرندى وكتابه " الوافى فى نظم القوافى " فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد السادس ١٩٥٧ ص ٢٠٥ - ٢٢٠ فى القسم العربى وفى الموجز الإشباني له فى ص ١٥٦ ، ١٥٧

(١٤) المرجع السابق ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ (وفى مؤلف نشر حديثا يطرح الأستاذ التونسى جعفر مجيد " أبو البقاء الرندى ناقدًا وشاعراً " فى محاضر الملتقى الإشباني التونسى الثانى للدراسات التاريخية ، مدريد ١٩٧٣ ص ٢٦٣ - ٢٨٦ ، يطرح الأستاذ جعفر المشكلة التى قد حلت ، والخاصة بتعيين الحقبة التى عاش فيها أبو البقاء ، ويما أن الموضوع قد فات على الأستاذ كنون فإن الأستاذ مجيد يعتقد أن المخطوط التونسى للإحاطة الذى استخدمه هو المخطوط الوحيد الذى يحتوى على تاريخى ميلاد أبى البقاء ووفاته (راجع مؤلفه المذكور ص ٢٦٩ ، ٢٧٠) وقد قيل إنهما التاريخ نفسه فى إحاطة الاسكوريال الذى ذكره غرثيه غومث سنة ١٩٤٤ ، والذى قتلته أنا عام ١٩٦٦ حينما نشرت للمرة الأولى هذه الصفحات .

(١٥) عن فهرس ديرنبورج ، عبارة عن المخطوط نفسه الذى رجع إليه السيد كنون .

(١٦) راجع مكتبة الاسكوريال العربية الإشبانية ، مدريد ١٧٧٠ ج ٢ ص ٩٧ ويدعوه الغزيرى صالح بن يزيد أبا الطيب المعروف بالشريف لدى العامة ، واستغل الخبر الوجيز الذى كتبه عنه الغزيرى م . لافوينتى القنطرة فى كتابه " تاريخ غرناطة " ، غرناطة ١٩٠٤ - ١٩٠٧ ج ٣ ص ١١٣

(١٧) لا يستحق عناء أن نعود إلى إيراد النص العربى للترجمة ؛ فقد نشره عبد الله كنون فى المجلة المذكورة ص ٢١١ ، ٢١٢ ، وعلى هامش المخطوط ص ٢٠٧ - حاشية لم ينقلها كنون ، تقول : صالح بن شريف صاحب العروض ، وعلى قيد ناظرى مركز الإحاطة مخطوط المكتبة الأهلية فى باريس رقم ٣٣٤٧ ، والخبر الوارد عن صالح بن يزيد فى الورقة ١١٧ إلى ١٢٤ ، وجه الورقة .

(١٨) لم يذكر كنون هذه النسبة .

(١٩) راجع المخطوط المذكور ورقة ١١٧ .

(٢٠) الاستشهاد وارد من كتاب " الذيل والتكملة " الذى بدأ نشره فى الأعوام الأخيرة ، فى المجلد الرابع ص ١٣٦ - ١٣٩ ، يظهر الخبر غير كامل والمتعلق بصالح بن يزيد - كما سوف أشير إلى ذلك فيما بعد .

(٢١) " مرضيا " فى المخطوط ، وفى المركز فى المكان المذكور ، وتبدو راجحة القراءة التى أمدنا بها الذيل ج ٤ ص ٢٧ : " مرضيا " وتعنى الفقيه بمسائل الإرث .

(٢٢) على بن جابر بن على بن يحيى اللخمي ، ولد سنة ٥٦٦ = ١١٧٠/١٧٧١ ، وتوفي في أشبيلية موطنه سنة ٦٤٦ = ١٢٤٨ ، في الأيام التي غزا فيها سان فرناندو المدينة ، وابن عبد الملك الذي خصه بخبر طويل في (الذيل ، المجلد الخامس ص ١٩٨ - ٢٠١) يروي الظروف المأساوية التي أحدثتا بموته ودفنه ، وترجمته موجودة أيضا عند ابن الزبير في « صلة الصلة » ، ترجمة رقم ٢٧٧ ، وعند ابن الأبار في « التكملة » ترجمة رقم ١٩١٠ ، وابن سعيد في المغرب ج ١ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، وفي مصادر أخرى متعددة .

(٢٣) على بن إبراهيم بن على بن عبد الرحمن بن حسن الأمي ، (توجد روايات مختلفة لهذا اللقب (الأمي ، الأموي) المعروف بابن الفخار الأركي ، تولى منصب القاضي في الجزيرة الخضراء وفي رندة ، ولد عام ٥٦١ = ١١٦٦ ، وتوفي في شريش عام ٦٤٢ = ١٢٤٤ ، ترجم له ابن الأبار في التكملة تحت رقم ١٩٠٧ ، وابن عبد الملك في الذيل ج ٥ ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، وابن الزبير في « صلة الصلة » رقم ٢٧٤ ، والرعيثي في البرنامج ص ١٢٣ .

(٢٤) على بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن قطرال الأنصاري ، أصله من أبدة ، تولى منصب القاضي في عدة مدن أندلسية - من بينها قرطبة - وفي مدن مختلفة في المغرب أيضا . ولد عام ٥٦٢ = ١١٦٦/١١٦٧ أو عام ٥٦٣ = ١١٦٨/١١٦٧ وتوفي سنة ٦٥١ = ١٢٥٣ ، وترجم له ابن الأبار في التكملة رقم ١٩١١ ، وابن الزبير في « صلة الصلة » رقم ٢٧٩ .

(٢٥) عثرت على عضوين من هذه الأسرة المعروفة يحملان كنية أبي الحسين ، أولهما على بن عبد الرحمن بن زرقون ، وعن هذه الشخصية البلنسية وقعت على خبر مقتضب خصه به ابن عبد الملك في الذيل ج ٥ ص ٢٣٦ ، يقول إنه كان على قيد الحياة حتى عام ٥٩٧ = ١٢٠٠/١٢٠١ ، ولا بد أن يكون قد عاش سنوات كثيرة إذ كان أستاذاً لأبي البقاء المولود سنة ١٠٢٤ ، ثانيهما محمد بن محمد بن سعيد بن أحمد ابن سعيد بن عبد البر بن مجاهد الأنصاري المعروف بابن زرقون ، وهذا أشبيلي ، خصه بخبر طويل تلميذه الرعيثي في البرنامج ص ٣١ - ٣٧ ، ويوجد أيضا عند ابن الأبار في التكملة ترجمة رقم ٩٦٧ ، ولد سنة ٥٢٩ = ١١٤٤ ، وتوفي في أشبيلية سنة ٦٢١ = ١٢٢٤ ، أظن أنه هو ابن زرقون الذي يشار إليه هنا ، وأصل هذا اللقب ابن زرقون الذي يشرحه بعض أصحاب التراجم عند الحديث عن بعض أفراد هذه الأسرة مأخوذ حسب الروايات المتعددة من ترجمة سعيد بن أحمد بن سعيد التي خصصها له ابن عبد الملك (راجع الذيل ج ٤ ص ٢٣) .

(٢٦) لم أجد أخبارا محددة عن هذه الشخصية ، وبنو الجد أسرة معروفة من الأدباء كانت تقيم في لبلة ، أحدهم أبو القاسم - ليس بالطبع هذا - المتوفى سنة ٥١٥ = ١١٢١ - قد ترجم له ابن عذاري (راجع المطرب من أشعار أهل المغرب بتحقيق إبراهيم الإبياري ، وأحمد عبد المجيد وأحمد بدرى ، القاهرة ١٩٥٤ ص ١٩٠ - ١٩٢ ، وهو كاتب رسائل سلطانية متعددة نشرها الدكتور مكي (مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمريد ، العدد السابع والثامن - ١٩٥٩ - ١٩٦٠ ، ص ١١٦ في القسم العربي وهامش ١ حيث يعود المصادر التي تتحدث عنه) ولقد عثرت - بعكس ذلك -

على ذكر أبى بكر بن الجد الذى ذكره بصورة متواترة أصحاب التراجم الأندلسيون ، لكن حسب ما يقوله ابن الأبار فى التكملة ترجمة رقم ٨٢٥ ، توفى سنة ٥٨٦ = ١١٩٠ ، أى قبل مولد أبى البقاء ، وابن عبد الملك - ومصدره ابن الخطيب - يدعوه أيضا بأبى القاسم ، ويلقبه بالتونسي (راجع الذيل ج ٤ ص ١٣٧) .

(٢٧) مخطوط . ص ٢٠٧ : وآخر فى العروض ، والمركز ورقة ١١٧ ، ظهر الورقة ، تأليف فى العروض ينقص فى نقل كتون فى المقال المذكور ص : ٢١١ .

(٢٨) هكذا أيضا فى المركز ، الورقة المذكورة ، وليس الوافى فى علم القوافى ، وهو الاسم الذى له - أعتقد - فى كل الفهارس ، ومخطوط الاسكوريال بهامشه حاشية من عمل الناسخ ، نقلها عنه كتون (ص ٢١١ - هامش ١) تقول : (عندى أنه الوافى ، وعلى ملكى منه نسخة عليها خط المؤلف المترجم به) وفى الذيل - مصدر الإحاطة - يوجد نفس العنوان الذى فى هذه (راجع ما يأتى ص ١٥٤ هامش ٢٢) .

(٢٩) راجع مقال كتون ص ٢١٢ .

(٣٠) راجع ما سبق ص ١٨ وما بعدها .

(٣١) هذان البيتان اللذان تغاضى عنهما كتون هما بالأصل (مخطوط الاسكوريال ورقة ٢١٢ ، ومخطوط باريس ورقة ١٢٤ ، وجه الورقة) .

خليلى بالود الذى بيننا اجعلاد إذا مت قبرى عرضة للترحم

عسى مسلم يدنو فيدعو برحمة فإنى محتاج لدعوة مسلم

(٣٢) راجع ما سبق ص ١١٤٩ وهامش ٢٠

(٣٣) يحدثنا ابن عبد الملك بأنه فى هذا المؤلف الذى يسمى أيضا الكافى فى علم القوافى كما قلنا أنفا (راجع ما سبق ص ١٥١ هامش ٢٨) جمع فيه صالح بن يزيد عددا طيبا من شعره هو ، وأعطانا مثالين من ذلك ، راجع الذيل ج ٤ ص ١٣٧ - ١٣٩

(٣٤) أخذها ابن حمودة فى المقال المذكور ، وقد درس بجانب هذا مصادر أخرى منها الذخيرة السنية التى استخدمها فيما بعد .

(٣٥) عن هذا المؤلف الذى ليس لدى عنه أخبار سوى ما فى الإحاطة ، هناك مخطوط للقسم الأول منه بعنوان روض الأنس ونزهة النفس يوجد بين مصادر أخرى استخدمها عبد الله المنونى فى مصنفه العلوم والآداب والفن على عهد الموحدين ، تطوان ١٣٦٦ = ١٩٥٠ ص ٣٠١ ، وهذا المخطوط ملك المؤلف كان يشكل جزءا على ما يبدو من مكتبة ابن غازى (وعنه انظر رقم ١٢ من منشاهير رجال المغرب لعبد الله كتون (تطوان بدون تاريخ) ويذكر محمد المنونى بعد ذلك مباشرة مخطوطا آخر للوافى - لا يذكر من أين - ويعطى كلا المؤلفين اسم الكاتب : أبو البقاء صالح بن شريف الرندى .

(٣٦) هذا الكاتب هو بلا ريب الشخص ذاته الذي يحدثنا عنه على بن موسى بن سعيد في المغرب ج ١ ص ٣٣٨ عند ذكره شعراء كورة رندة كان أصله من أوندة إحدى حصون الكورة كما يهتم ابن سعيد بذلك فإنه لا ينبغي الخلط بينها وبين أوندة إحدى كور بلدية ، الواقعة في مناطعة قسطلون الحالية ، التي يذكرها المقرئ أيضا حينما يتحدث عنها (انظر نفح الطيب ج ٦ ص ١١١ = نفح الطيب ج ١ ص ١٧٠) ويدعوه ابن سعيد أبا بكر بن عمر الأوندى الذي انتقل من أوندة إلى أشبيلية ، حيث تتلمذ على النحوى الجليل الشلوينى ، وقد حضر تلك الدروس ابن سعيد كذلك ، مما أتاح له الفرصة كي يقدر ذكاه المفرط ، وينتهى الخبر الموجز ببيتين له من الشعر ، مأخوذين - إن لم يكونا في المغرب - فهما على الأقل من الكتابات المقابلة للنص المطبوع ، إذ أن التمهيد المخصص لهما مختلف عند المقرئ (راجع نفح الطيب Analœctes ج ٢ ص ٥١٢ = نفح الطيب ج ٥ ص ٢٦٩) وفي القديح الملقى في التاريخ المحلى (في اختصار أبى عبد الله محمد بن خليل الذى نشره إبراهيم الإبيارى - القاهرة ١٩٥٩ ص ١٦٨ ، ١٦٩) ، وأعطانا ابن سعيد أخبارا جديدة عن أبى بكر الأوندى تتعلق بإقامته في إشبيلية وكلاهما مع الشاعر الكبير ابن سهل قد كرسوا أنفسهم دون حدود لممارسة الآداب ، واستسلموا في إصرار لملاذات التي يقتضيها الشباب .

كان أبو بكر - شاعرا - تقليديا : " جامحا في ميدان الشعر ، جاريا منه على أوضح منهج " ، لكن ما كانت له قامة ابن سهل ، ولهذا السبب تخلى ابن سعيد عن أن يضعه في ارتباط الارتجال الشعري معهم ، وفي نهاية حياته وصل رغم ذلك إلى أن يكون شاعرا لا بأس به ، ولقد ترك ابن سعيد رؤية أبى بكر حينما كان هذا في غضارة شبابه يخطب خطب عشواء ، ولم يد علم عنه أى شيء منذ أن شرع في السفر إلى المشرق ، ولم يظهر في أى من الخبرين أية معلومة عن مولده أو وفاته ، لكن بما أنه كان معاصرا - قطعا - لعلى بن موسى بن سعيد (٦١٠ - ٦٧٢ = ١٢١٣/١٢١٤ - ١٢٧٤) فإن أبا بكر هذا من الجائز جدا أن يكون هو كاتب الرسالة إلى أبى البقاء ، ولم تظهر نسبة البرذعى لا عند ابن سعيد ولا عند المقرئ ، وهذا الأخير (ق نفس المصدر والمكان) يدعوه الرندى .

(٣٧) نموذج آخر - عجيب حقا - أخذه المقرئ (نفح الطيب ج ٨ ص ٢٨٠ - ٢٨٦) هو رسالة بعث بها ابن الخطيب إلى ابن خلدون يوصيه بما ينبغي أن يعامل به محظيته هند .

(٣٨) مع كل هذا ، لا اعتقد أنه يمكن الاعتداد برأى يحدثنا عن نشاط أبى البقاء الأدبي يقدمه لنا الغزيرى بعد أن تحدث عن أعماله الكبرى دون أن يذكر سوى العناوين التي جمعها ابن الخطيب عن التراجم التي استشارها فيدل على برأيه الخاص مشيرا إلى النص الذى نحن بصدد دراسته هو " Ad Haec - Accenunt Rhetorica puellae Descriptio, Vividis, sed Honestis : Coloribus A dumbrat " (المكتبة العربية الإسبانية في الاسكوريال ج ٢ ص ١٧ B) ، وأيضا م . لافونيتى القنطرة - مستندا على ذلك - الذى في الأغلب لم ير الأصل حتى من بعيد " وصف الفتاة الوردية ، عفيفة الخد " (راجع كتابه تاريخ غرناطة . الطبعة المذكورة المكان نفسه ، وما سبق في هامش ١٦) .

(٣٩) نشر في " إنسولا " العام السابع ، عدد ١٥٠٧٩ من يوليو ١٩٥٢ ص ١١٢٣ ضمن المؤلفات الكاملة . مدريد ، جريدوس ج ٢ (١٩٧٢) ص ٣٩٩ - ٤١١ .

(٤٠) سأتناوله في الفصل التالى . (السابع) ص ١٧٣ - ١٩٦ .

ملحق نص الرسالتين كما جاء فى كتاب روضة الأنس

قال فى " كتاب روضة الأنس " ما نصه :

ويتعلق بهذا الباب ما خاطبنى به الفقيه الجليل أبو بكر البرذعى من أهل بلدنا ،
أعزه الله : يا سيدى ، أخبرك بخبر عجاب ، إذ لا سر دونك ولا حجاب ، بعد أن أتقدم
إليك أن لا تجعل اللوم إلى ، قبل علم ما لدى ، وأن الدهر أخدع من كفة الحابل ، وقلب
الإنسان للآفات قابل .

مشيت إلى سوق الرقيق ، لأخذ حق فؤاد حنيق ، فرأيت به جارية عسجدية اللون ،
حديثة عهد بالصون ، متمائلة القد ، قائمة النهد ، بلحظ قد أوتى من السحر أوفر حظ ،
وقم كشرطة رشحت بدم ، داخله سمطان لولاهما ما عرف النظم ، ولا حكم على الدر
العظم ، فى صدغيها لآمان ما خط شكلهما قلم ، ولا قص مثلهما جلم ، لها جيد تتمناه
الغيد ، وخصر هو قبضة الكف فى الحصر ، وردف يظلمه من يشبهه بالحقف ، ويدان
خلقتا للوشى ، وقدمان أهلتا للثم لا للمشى ، فتطاوت إليها الأعناق ، وبذلت فيها
الأعلاق ، والمياسير عليها تعزم فى القوم ، وتسوم أغلى السوم ، وكل فيها يزيد ، ليبلغ
ما يريد ، إلى أن جاء فتى صادق فى حبه ، لا يبالى بفساد ماله فى صلاح قلبه ، فعد
المال عدا ، ولم يجد غيره من التسليم بدا ، فلما فاتتني تركت الأشواق القوم وأتتني ،
وانتقضت عزائم صبرى فما أتتني ، فالله الله تدارك أخاك سريعا ، قبل أن تلفيه من
الوجد صريعا ، واشتر له خادما ، قبل أن تصبح عليه نادما ، ولن أحتاج أن أصفها
إليك ، مع ما نصصته عليك .

وقد أهديتها دررا فخذها على جهة الفكاهة والدعابة
ولا تطلع أخا جهلٍ عليها فمن لم يدرَ قدر الشيء عابه

فأجبتة : نعم . نعم . أنعم الله بآلك ، وسنى آمالك ، أنا بحول الله أرتاد لك من
نحو هاتيك ، ما يسليك ويوتيك ، وإلا فبيضاء كاللجين ، ملء القلب والعين ، زهرة
غصن ، فى روضة حسن ، ذات نوائب ، تدع النفوس نوائب ، كأنها ليل على نهار ،

أو بنفسج في بهار ، لها وجه أبهى من الغنى ، وأشهى من نيل المنى ، فيه حاجبان
كأنهما قوس صنعت من السبج ، ورصعت بعاج من البلج ، على عينين ساحرتين ،
بالعقل ساخرتين ، بهما تصاب الكبود ، وتشق القلوب قبل الجلود ، إلى فم كأنه ختام
مسك ، على نظام سلك ، سقاها الحسن برحيقه ، فأنبت دره في عقيقه ، وجيد ، في
الحسن وحيد ، على صدر كأنه من مرمر ، فيه حقتا عاج طوقت بعنبر ، قد خلقتا
للعض ، في جسم غض ، له خصر مدمج ، وردف يتموج ، وأطراف كالعنم ، رقمت رقم
القلم . من اللائي شهدن ابن المؤمل ، وقال في مثلها الأول :

إن هي تاهت فمثلها تاهها	أوهى باهت فمثلها باها
من أين للغصن مثل قامتها	أو أين للبدر مثل مرآها
ما فعلت بالقلوب صابية	ما فعلت في القلوب عيناها
تملكنى بالهوى وأملكها	فها أنا عبدها ومولاها

فأيهما شئت بذلت فيه الجهد ، وأرضيت الجد والود ، إن شاء الله تعالى ، وأنا
فيما عرض لسيدى (حفظه الله) على ما يجب ، وأعزه ولا أعذله ، وأنصره ولا أخذله ،
لكنى أقول كما قال بعض الحكماء : لا ينبغي لمن قلبه رقيق ، أن يدخل سوق الرقيق ،
إلا أن يكون من جمع من المال والجمال ، يتنافس في العالى ، ويستترخص بالثمن
الغالى ولا يبالى ، بمن قال لائمه إذا وجد من يلائمه ، كما قال الشاعر :

ما انتفاع المحب بالمال إن لم	يتوصل به لوصل الحبيب
إنما ينبغي بحكم الهوى أن	ينفق المال في صلاح القلوب

والسلام على سيدى ما كانت الفكاهة شأن الوفاء ، والمداعبة من شيم الظرفاء ،
ورحمة الله وبركاته .

الفصل السابع

مقامة العيد لابن المربع الأزدي

خصص ابن الخطيب فصلا مطولا من كتابه "الإحاطة" (١) ، يضم - كالعادة - مختارات من الشعر ، ونص مقامة لأحد معاصريه هو الأديب ابن المربع الأزدي الذي أتحدث عنه في هذا الفصل ، نعلم كذلك أن ابن الخطيب ترجم له في كتاب آخر هو "التاج المحلى" (٢) ، وقد كرر إحدى فقراته في «الإحاطة» ، أما المرقى في الجزء الثاني من "نفح الطيب" (٣) فقد استغل الترجمة الخاصة بابن الأزدي الموجودة في الإحاطة ، مستخدما إحدى مخطوطات هذا الكتاب ، التي تضم مختارات له من الشعر أكثر من التي ظهرت في مخطوطة الاسكوريال ، واستغنى المرقى - مع ذلك - عن المقامة وإن كان لم يستغن عن أخبار كاتبها التي هي عبارة عن صورة له ، وتقييم لموهبته الأدبية أكثر مما هي ترجمة .

إن المواد المشار إليها تبدو هي الرسائل الوجيهة الممثلة لصاحبنا الأديب ، اسمه كاملا عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي يكنى بأبي محمد ، ويعرف بابن المربع (٤) ، ولد في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر في بلش من أعمال مالقة ، وتوفي في المدينة نفسها في أواسط القرن الرابع عشر (٥) .

يترجم له ابن الخطيب بقوله : "من نبهاء أدباء البادية ، خشن الظاهر ، منطوي على لوزعية ، متوارية في مظهر جفوة ، كثير الانطباع عند الخبرة ، قادر على النظم والنثر ، متوسط الطبقة فيهما ، مسترشد بالشعر ، سيال القريحة ، مرهوب الهجاء " ، وعبارة ابن الخطيب التالية فيها بعض غموض ، ويفهم منها أنه كان مشهور المكان ببلده ، يعيش حياة متواضعة ، ليس فيها كثير من الكبرياء ، ثم يضيف : " وجد بذلك وقته ، يوسط رقاعته ، فتنجح الوسيلة ، ويتمشى له بين الرضا والسخط الغرض . " بعد ذلك يقدم ابن الخطيب فقرة نقلها حرفيا في كتابه التاج المحلى = (نفح الطيب ح ٨ ص ٣٦٣) ، وقد ألقنا إلى ذلك ، يقول :

"شباب فى الأدب وشب ، ونشق ربح البیان لما هب ، فحاول رقیقه وجزله ، وأجاد جده وأحكم هزله ، فإن مدح صدح ، وإن وصف أنصف ، وإن عصف قصف ، وإن أنشأ ودون ، وتقلب فى أفانین البلاغة وتلون أفسد ما شاء الله وكون " .

ثم یستطرد ابن الخطیب فیقول : « فهو شیخ الطریقة الأدبیه وفتاها ، وخطیب حفلها كلما أتاها ، لا یتوقف علیه من أغراضها غرض ، ولا یضیع لیه منها مفترض ، ولم تزل بروقه تتألق ، ومعانیه بأذیال الإحسان تتعلق ، حتى برز فى أبطال الكلام وفرسانه ، وذعرت القلوب بسطوة لسانه ، وألقت إلیه الصناعة زمامها ، ووقفت علیه أحكامها » (٦) .

ولأسباب نجهلها ، ربما لکی یتعد عن الأعیان الذین وجه إلیهم قصائده ، ولم یتلق منهم أية صلة ، أو لأنه هجاهم هجاء مقذعا فتبعوه - رجل الأزدی إلی شمال إفريقيا ، لاندري متى ولا إلی أين ، ربما كان فى أواخر حیاته - ربما كان هذا سببا آخر یعلل غربته - فى الوقت الذی لاتجدى شیئا قصائده ، وحين أضاع مكانته بین مواطنیه ، كان الجد مناهضا له - على كل حال - فى الشاطئ الآخر من المضیق ، وكان علیه أن یثوب إلی وطنه حسب ما یرویه ابن الخطیب :

"وعبر البحر منتجعا بشعره ، ومنفقا فى سوق الكساد من سعره ، فأبرق وأرعد ، وحذر وأوعد ، وبلغ جهد إمكانه فى التعریف بمكانه ، فما حرك ولاهز ، وذل فى طلب الرفد وقد عز ، وما برح أن رجع إلی وطنه الذی اعتاده رجوع الحدیث إلی قتادة " .

ندری أنه كان على علاقة صداقة بكبار الشخصیات ، وبناء على رغبة أبی عبد الله محمد الرابع سادس السلاطین النصریین [٧٢٥ - ٧٣٣ = ١٣٢٥ - ١٣٣٣] ارتجل بعض أبيات فى الشعر من بحر الطویل ، نقلها إلینا المؤرخون (٧) یصف فیها جبل [شلیر] كلة البرد ، مقارنا بینه وبين هرم بملايس بیضاء ، مستخدما الأقوال المطروقة ، والمعهودة عن موضوع الزمن ، مع المدح المعتاد لعظمة الملك ، ووجه مقامة للرئيس أبی سعید فرج (٨) أمير مالقة ، وفاتح سبتة ، وصهر محمد الثانى ، ووالد أبی الولید إسماعیل الأول الذی سوف ندرسه فیما بعد ، ونظم مرثیة لوالد ابن الخطیب وأخیه اللذین استشهدا فى واقعة طریف [٧٤١ = ١٣٤٠] جاءت

فى بحر الكامل وأرسلها إلى الوزير الذى رد عليه شاكرًا بقصيدة من الوزن والروى ذاته^(٩) ورفع قصيدة أخرى من اثنين وثلاثين بيتًا من بحر الطويل فى نهاية سنة [٧٤٩ = ١٣٤٩] إلى ابن الخطيب قبل موت صاحبنا بقليل عندما تقلد الأخير خطة الإنشاء وخططا أخرى^(١٠) .

حدد ابن الخطيب تاريخ وفاة ابن المربع الأزدي فى بلده بلش بمالقة حيث دفن فى نهايات السنة ٧٥٠ = ١٣٥٠ بسبب الوباء^(١١) وهو الوباء الذى اجتاح العالم فى أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وقد أوحى إلى بوكاشيو فكتب الديكامرون ، وقد تناول هذا الوباء كتاب أندلسيون مثل ابن خاتمة فى ألمرية^(١٢) وابن الخطيب^(١٣) .

هذا كل ما ندرىه عن حياته ، أما عن بعض أعماله التى وصلتتنا فضلًا عن شعره التقليدى - فإنه توجد بعض أبيات استسلم فيها إلى محسنات بديعية ذات طابع باروكى جدا حتى بالنسبة لذوق الحقبة ، حقبة الانحطاط الأدبى^(١٤) ، وقد أشار إلى هذا ابن الخطيب فى كلمات ترجمتها أنفا ، ومن طابع آخر ، فإنه - على العكس - فى مرثيته لذيكة الذى مات ، يبدو فى أسى هائل بسبب هذا^(١٥) ، مرثية الديك لها سابقة فى الأدب الأندلسى^(١٦) ، حفظ لنا ابن خير نبأ قصيدة نعتها بأنها غريبة حول الموضوع ذاته ، نظمها أبو الفرج على بن محمد بن حسن القرشى ، وهى فيما يبدو حظيت بشهرة لا بأس بها ، وهى قصيدة ابن المربع الأزدي : (*)

أودى به الحتف لما جاءه الأجل	ديكا فلا عوض منه ولا بدل
وقد كان لى أمل فى أن يعيش فلم	يثبت مع الحتف فى بغيا لها أمل
فقدته ، فلعمرى إنها عظة	وبالمواعظ تدرى دمعها المقل
كأن مطرف وشى فوق ملبسه	عليه من كل حسن باهر حل
كأن إكليل كسرى فوق مفرقه	وتاجه فهو عالى الشكل محتفل

(*) جاءت هذه القصيدة شديدة الاضطراب وزنا فى تحقيق عبد الله عنان - كما هى العادة - وقد حاولنا إصلاح خللها وإقامة وزنها دون بُعد عن الأصل - المترجم .

مسؤقت لمن يكن يطرق له خطأ
 كأن زرقيل فيما مر علمه
 يرحل الليل يحيى بالصراخ فيما
 رأيت هنت منه القوى فهوى
 لو يفتدى بديوك الأرض قل له
 قالوا الدواء فلم يغن الدواء ولم
 أمّلت فيه ثوابا أجر محتسب
 فيما يرتل من ورد ولا خطل (*)
 علم المواقيت فيما رتب الأول (١٧)
 يصصده كلل عنه ولا ملل
 للأرض فعلا يريه الشارب الثمل
 ذاك الفداء ، ولكن فاجأ الأجل
 ينفعه من ذاك ما قالوا وما فعلوا
 إن قلت ذلك صح القول والعمل

لكن المظهر الأهم لابن المربع هو صلته بشعراء آخرين مستهترين في كثير
 أو قليل في حياتهم وفي نتاجهم ، أكثرهم شهرة سلفه ابن قزمان ، وقد ظلوا إلى
 أواخر إسبانيا الإسلامية ، يحدثنا ابن الخطيب أن ابن المربع كان يعيش من شعره ،
 بمعنى أنه كان محترفا للشعر ، ليس له عمل معروف غيره ، لكنه لم يكن شاعر بلاط -
 كما حدث في كل العصور في كل بلاد الإسلام - موقوفا على مدح الحضرة النصرية ،
 فإنه كان قد استطاع - في وقت ما - أن يحظى بحماية أحد الملوك ، وإذا كان قد
 استطاع أن يحصل على رزق كاف لأنه عين في منصب ما في الدولة ، فإن هذا ولا ذاك
 لا نحسب أنه قد استمر فيه أدا طويلا ، فالقيد لا يتفق وطبيعته ، وقد رماه من وراء
 ظهره لكي يحيا حياته هو « بحث عبر الشعر عن وسائل عيشه » مع الشعر أو مع
 وسائل أخرى على هامش السنة ، ومع احتياجات من كل لون حسب الملابس ، ووفق
 الإلهام وعضة الجوع ، إلى هذا أشار ابن الخطيب حين تحدث عنه بوصفه ممثلا
 حقيقيا للطريقة الأدبية ، وهو مرادف لقولنا الطريقة الساسانية (١٨) التي لدينا عنها
 شاهد في مؤلفات شاعر آخر من مالقة في منتصف القرن الخامس عشر هو الفقيه
 عمر الذي أتحدث عنه في الفصل التالي (١٩) .

(*) لا أتفق مع المؤلف في ترجمته هذا البيت إلى الإسبانية - المترجم .

في خط الصعاليك هذا ، وبأفداب أديب يغنم العيش بحيله وشعره ، نجد هذا الشاعر من بلش من أعمال مالقة ابن المربع الأزدي ، أوضح النماذج حين أدرج ابن الخطيب في إحاطته نصا من مقامة لصاحبنا الأديب - نعرف أنه كتب غيرها - (٢٠) ألفها لهدف واحد - كما يلاحظ في الخاتمة - حين سأل حملا يضحى به في عيد الأضحى ، ورفع المقامة إلى الأمير أبي سعيد فرج .

هذه المقامة التي لم تستحق شرف ضم المقرئ لها في مصنفاته - بقيت مخطوطة إلى أن رأى صديقي العزيز الأستاذ المصري أحمد مختار العبادي أثناء إقامته في إسبانيا دارسا أن ينشرها - وهي فكرة جيدة - قدم لها بدراسة رصينة في اللغة العربية حول هذا النوع من المقامات ، وعن تأثيرها المحتمل في القصة البيكارسية في الأدب الإسباني (٢١) ، لم يقل شيئا جديدا بهذا الصدر ، لكن في المقال شيئا مهما هو وقوف القارئ العربي على المشكلة المطروحة منذ زمن ، وبدون حل حتى الآن ، وقد قدم الأستاذ ليفي بروفنسال إشارة موجزة إلى مقال الدكتور العبادي ، ووصف المقامة بأنها ذات « DE STYLE ET COULANT » (٢٢) .

لم يكد الدكتور العبادي يستخدم المعلومات التي لديه ليتحدث عن كاتب هذه المقامة ، بل إنه خصص له سطورا قليلة فحسب محيلا إلى الإحاطة ونفع الطيب ، وبحسبه مؤرخا أدرك قيمة العمل التاريخية بوصفه صورة للمجتمع الغرناطي ، وإنني أعتقد - مع ذلك - أن الأهمية الكبرى لهذه المقامة التي لا تحمل أسماء والتي وضع لها الناشر عنوان « العيد » تكمن بالذات في قيمتها الأدبية ؛ لأن النصوص التي وصلت إلينا من هذا النوع قليلة ، بما فيها النصوص غير المنشورة ، وإن كانت لدينا أخبار عن مخطوطات كثيرة ، وفي نيتي أن أمضي لدراستها ، باعتبارها عملا تمهيدا للعثور على قيمة أدبية محتملة في النثر الفني في الأندلس ، وإنني أنشر فيما يلي ترجمة مقامة العيد التي كان على أن أغلب بعض الصعوبات ، وأخشى ألا أكون قد تغلبت عليها جميعا ، رشاقة الحوار واضحة في الأصل ، برغم أن المقامة كتبت - كما هو لازم - في نثر مسجوع يستعين بكل الجماليات ، وبما أن المقامة عبارة عن نص كتب في مناسبة كتبها المؤلف في سرعة عاجلة ، ضائقا بحلول العيد وشيكا ، فإنه لم يأبه بأية عوارض ، وعند مجابته بالروى كان مضطرا لاستخدام قافية محددة ، وقد كتب مرات متعددة الكلمة الأولى التي تطفر إلى ذهنه ، ويحذف هذا العنصر من

الترجمة - ولنقل العنصر الموسيقى - تبقى الحواشى الخجلى عارية ، ولهذا فقد تصرفت فى بعض الأحيان تصرفا يسيرا فى المعنى ، لكى أجد شيئا ، لكن فى أحيان أخر تركت الأصل كما هو ، لكيلا أخون النص الأصلى خيانة كبيرة ، ولنعد إلى الحوار الذى جاء فى معظمه مقطوعا ، أمر يجعل المرء يفكر فى لغة المسرح ، ولكى أهرب من التكرار المقيت فى الفعل «قال» فقد أدمجته فى الترجمة محددا إياه فى كل مقام ، ووضعته بين الجملة التى يجىء فيها .

أود أن أبرز الصورة البارعة لشخصية الزوجة ، لا تكاد تكون موصوفة لكنها تخال - قبل كل شيء - من خلال ما تقوله ، إنه السخط ذاته الذى تتسم به المرأة أحيانا فى الأدب الإسباني فى العصر الوسيط - فلنتذكر كاهن طلبيرة - فى ذلك التيار الذى يهجوها إزاء تيار آخر يمجدها ، يمثل دون ألبرودى لونا التيار الثانى .

أعتقد أنى أرى فى المقامة أيضا - وإن كانت موضوعة فى قالب قديم ، وإن كان ما يحكيه لنا البطل خيالا - صورة المؤلف وظهارته المريرة ، مرارة الرجل الذى يرى كل الأبواب مصفدة أمامه ، يعضه الجوع ، ولايستطيع من خلال حيله - التى تبوء بالإخفاق جميعها - أن يبلغ ما يريغه ، إنه يبدو لى رجلا متخاذلا يطلب صدقة أكثر مما هو فنان يحاول الحصول على جائزة عمله .

بجانب طبعة مختار العبادى (٢٣) فقد انتشرت صورة مخطوط «الإحاطة» فى الاسكوريال (٢٤) والصورة المخطوطة التى قام بها فى القرن الثامن عشر دون خوان أمون دى سان خوان المحفوظة فى المكتبة الوطنية فى مدريد (٢٥) ، وقد كان صديقى العزيز الدكتور محمود على مكى - الذى أزجى له كل شكرى - كريما مفعى فى اقتراحه على بعض تصويبات فى النص ، وفى توجيهى لترجمة بعض العبارات التى ماكنت أرى معناها واضحا .

لنترك الآن ابن المربع الأزدي الصعلوك الساخر يروى لنا مغامراته :

هوامش

- (١) أقصد دائما مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٧٣ فى فهرس ديرنبورج ، راجع ص ٢٢٦ - ٢٣٠ .
- (٢) العنوان بالكامل هو « التاج المحلى فى مساجلة القدر المطى » . عن هذا الكتاب راجع GAL ج ٢ ص ٢٦٢ ، H ، ديرنبورج . المخطوطات العربية فى الاسكوريال ج ١ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، راجع نفح الطيب ج ٨ ص ٣٦٢ .
- (٣) راجع المجلد السادس ص ٢١٥ وما بعدها والمجلد الثانى ص ٢٠٩ وما بعدها وص ٣٦٣ ، ٣٦٤ .
- (٤) الإحاطة ص ٢٢٦ .
- (٥) الإحاطة ص ٢٣٠ .
- (٦) الإحاطة ص ٢٢٦ ، نفح الطيب ج ٨ ص ٣٦٣ .
- (٧) الإحاطة ص ٢٢٧ ، ونفح الطيب ج ٨ ص ٢١٣ ، ترجم هذا الشعر الدكتورة مارييا باث توريس بالومو فى عمل موجز ، نشر فى Miscelánea للدراسات العربية والعبرية فى غرناطة عدد ٢١ مجلد أول عام ١٩٧٢ ص ١٦٩ - ١٧١ ، بعنوان ابن المربع الأزدي شاعر جبل شلير ، وقد ذكرت صفحاتى هذه بالطبع ، والتي نشرت أول مرة سنة ١٩٦٢ ، واست أفهم - والمالة هذه - كيف تقول أنها قد عثرت بالمصادفة على هذه الأبيات (وهى ثمانية بالمناسبة) فى مخطوط الإحاطة .
- (٨) راجع عن هذا الأمير : ابن خلدون . تاريخ البربر ، ترجمة سلان . باريس ١٩٥٦ مجلد ٤ ، وبخاصة ص ١٥٩ - ١٦١ و ٤٧٠ ، ٤٧١ ، وانظر أيضاً : ف ، جين روبلس . مالقة الإسلامية . مالقة ١٨٨٠ ص ١٨٠ وما بعدها .
- (٩) توجد فى نفح الطيب ج ٦ ص ٢١٥ - ٢١٧ ، ولا توجد فى مخطوط الإحاطة بالاسكوريال وإن كان المقرأ يؤكد - فى وضوح - أنه قد استقاها فى ترجمة الأزدي فى الإحاطة .
- (١٠) راجع نفح الطيب ج ٨ ص ٢٠٩ - ٢١١ .
- (١١) الإحاطة ص ٢٣٠ ، والخبر - فى اختصار - موجود أيضا فى نفح الطيب ج ٨ ، ص ٢١٣ .
- (١٢) كتب مصنفنا بعنوان : تحصيل الغرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد ، انظر : بروكلمان وجمال . ملحق ٢ ص ٣٦٩ ، ومؤلف طه دنانة الذى ذكره بروكلمان استخدمه الدكتور خوسيه فرنارت فى مقاله " شىء عن دراسة الطب العربى الإشباني ، ابن خاتمة السمرى " فى مجلة غرناطة " أكتواليداد ميديكا عدد ٣٤ سنة ١٩٥٨ ، ص ٤٩٩ - ٥١٣ و ٥٦٦ - ٥٨٠ .

(١٣) مصنف ابن الخطيب عنوانه : مقنعة السائل عن المرض الهائل . راجع بروكلمان وجال ملحق ٢ ص ٣٧٢ .

(١٤) انظر مثلا نفح الطيب ج ٨ ص ٢١١ ، ٢١٢ .

(١٥) الإحاطة ص ٢٢٧ ، ومنقولة في نفح الطيب ج ٨ ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(١٦) ابن خير . فهرسة ص ٤١٢ ، ٤١٣ ، وترد بعد هذا الخبر مرثية أخرى في وفاة حمار .

(١٧) تظهر في نفح الطيب هكذا زرقال ، وفي مخطوط الإحاطة زرقيل ، صورة محتملة لم يرحب بها خ . ماريا مياس بايكروسا في دراسته عن الزرقيل . مدريد وغرناطة ١٩٤٣ - ١٩٥٠ ص ١٥ ، ١٧ .

(١٨) أوينو ساسان . عن أصلهم انظر ماسياني ص ٢٠٧ هامش ١٢ .

(١٩) سياني ص ٢٠١ - ٢٢٠ ، راجع ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .

(٢٠) راجع الإحاطة ص ٢٧٧ .

(٢١) أحمد مختار العبادي ، مقامة العيد لابن محمد عبد الله الأزدي ، صورة من صور الحياة الشعبية في غرناطة ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية - مدريد عدد ٢ سنة ١٩٥٤ ، ص ١٥٩ - ١٧٣ في القسم العربي ، وفي القسم الإسباني المختصر ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢٢) راجع Arabica ٢ سنة ١٩٥٥ ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢٣) يوجد نص المقامة في ص ١٦٨ - ١٧٣ في المقال السالف الذكر .

(٢٤) المخطوط المذكور ص ٢٢٧ - ٢٣٠ .

(٢٥) المخطوط رقم ٢٧ في فهرس المخطوطات العربية الموجودة في المكتبة الوطنية في مدريد . صنفه جين روبلس ، مدريد ١٨٨٩ الرقم الحالي للمخطوط هو ٤٨٩١ ، ويوجد نص المقامة في ص ٤٣٥ - ٤٣٨ .

مقامة العيد

يقول شاكر الأيادي ، وذاكر فخر كل نادى ، وناثر غرر الغرر للعاكف والبادى ،
والرائح والغادى ، اسمعوا منى حديثا تلذه الأسماع ، ويستطرفه الاستماع ، ويشهد
بحسنه الإجماع ، وهو من الأحاديث التى لم تتفق إلا لمثلى ، ولا ذكرت عن أحد قبلى ،
وذلك يا معشر الألفاء والخلصاء والأحباء ، أنى دخلت فى هذه الأيام دارى ، فى بعض
أدوارى ، لأقضى من أخذ الغذاء أوطارى ، على حسب أطوارى ، فقالت لى ربة البيت ،
لم جئت ولم أتيت ؟ قلت جئت لكذا وكذا ، فما الغذاء ؟ قالت لا غذا لك عندى اليوم ، ولو
أودى بك الصوم ، حتى تسئل الاستخارة ، وتفعل كما فعل زوج الجارة ، طيب الله
بخاره ، وملا بالأرزاق وجاره ، قلت وما فعل ؟ خبرينى ، وأرينى فى العلامة ما أحببت
ترينى ، قالت إنه فكر فى العيد ، ونظر فى أسباب التعييد ، وفعل فى ذلك ما يستحسنه
القريب والبعيد ، وأنت قد نسيت ذكره ، ومحوته من بالك ، ولم تنظر إليه نظرة بعين
اهتبالك ، وعيد الأضحى فى اليد ، والنظر فى شراء الأضحى اليوم أوفق من الغد .

قلت صدقت ، وبالحق نطق ، بارك الله فيك ، وشكر جميل تحفيك ، ولقد نبهت
بعلك لإقامة السنة ، ورفعت عنه فى الغفلة هنة ، والآن أسير لأبحث عما ذكرت ، وأنظر
فى إحضار ما إليه أشرت ، ويتأتى ذلك إن شاء الله بسعدك ، وتنايلين فيه من بلوغ
الأمل غاية قصدك ، والجد ليس فى الهزل ، والأضحى للمرأة وللرجل الغزل ، قالت
دعنى من الخرافات ، وأخبار الزرافات ، فإنك حلو اللسان ، قليل الإحسان ، اتخذت
الغربة صحبتك آل ساسان ، فتهاونت ، وأسأت فيمن أساء ، وعودت أكل خبزك فى
عقر منديل ، وإيقاد الفتيل دون قنديل ، ويسكنى الخان ، وعدم ارتفاع الدخان ، فما
تقيم موهما ، ولا تغرف له مبسما ، وأخذت معى فى ذلك بطويل وعريض ، وكلانا فى
طرفى نقيض ، إلى أن قلت لها : إزارك وردائى ، فقد تفاقم بك أمر دائى ، وما
أظنك إلا بعض أعدائى ، قالت : مالك والإزار ، شط بك المزار ، لعلك تريد إرهائه فى
الأضحى والأبزار ؟ أخرج عنى يا مقيت ، لا عمرت معك ولا بقيت ، أو عدمت الدين ،

وأخذ الوزر بالعين ، يلزمنى صوم سنة ، لا أغفيت معك سنة ، إلا إن رجعت بمثل ما
رجع به زوج جارتى ، وأرى لك الريح فى تجارتى ، فقامت عنها وقد لوت رأسها وولوت ،
وابتدرت وهولت ، وجالت فى العتاب وهولت ، وضمت بنتها وولدها ، وأقامت بالحجج
والانتصار بالحجج أودها ، فلم يسعنى إلا أن عدوت أطوف السكك والشوارع ، وأبادر
لما غدوت بسبيله وأسارع ، وأجوف الآفاق ، وأسأل الرفاق ، وأخترق الأسواق ،
وأقتحم زريبة بعد زريبة ، وأختبر منها البعيدة والقريبة ، فما استرخصته استنقصته ،
وما استغلّيته استعلّيته ، وما وافق غرضى ، اعترضنى دونه عدم عرضى ، حتى
انقضى ثلثا يومى ، وقد عييت بدورانى وصومى ، وأنا لم أحصل من الابتياح على فائدة ،
ولا عادت علىّ فيه من قضاء الأدب عائدة ، فأومأت للإياب ، وأنا أجد من خوفها ما
يجد صغار الغنم من الذئاب ، إلى أن مررت بقصاب فى مجزرة ، قد شد فى وسطه
مجزرة مبرزة ، وقصر أثوابه حتى كشف عن ساقيه ، وشمر عن ساعديه ، حتى أبدى
مرفقيه ، وبين يديه ، عنز ، قد شد يديه فى روقيه ، وهو يجذبه فيبرك ، ويجره فما
يتحرك ، ويروم سيره فيرجع القهقرى ، ويعود إلى ورا ، والقصاب يشد على إزاره ،
خيفة من فراره ، وهو يقول : آه له من جان باغ ! وشيطان طاغ ، ما أشده ! وما ألده !
وما أحده ! وما أكثره بشحم ! وما أطيبه بلحم ! الطلاق يلزمه من كان عاين تيسا مثله ،
أو أضحية تشبهه قبله ، وأضحية حفيلة ، ومنحة جليلة ، هنا الله من رزقها ، وأخلف
عليه رزقها ، فاقتحمت المزدحم أنظر مع من نظر ، وأختبر فيمن اختبر ، وأنا والله
لا أعرف فى التقلب والتخمين ، ولا أفرق بين العجيف والسمين ، غير أنى رأيت صورة
دون البغل وفوق الحمار ، وشكلا يخبرك عن صورة العمار ، فقلت للقصاب ، كم طلبك
فيه ، على أن تمهل الثمن حتى أوفيه ؟ فقال ابغنى فيه أجيرا ، وكن له الآن من الذبح
مجيرا ، وخذه بما يرضى لأولى التقضى . قلت استمع الصوت ، ولا تخف الفوت ،
قال ابتعه منى نسية ، وخذه هدية ، قلت نعم فسق لى الضمير ، وما ماكسنى فيه
بالنقير والقطمير ، قال تضمن لى فيه عشرين كبارا ، أقبضها منك لانقضاء الحول
دينارا دينارا ، قلت إن هذا لكثير ، فاسمح منه بإحاطة اليسير ، قال والذى خلق الحبة ،
وبرأ النسمة ، لا أنقصك من هذا وما قلت سمسة ، اللهم إن شئت السعة فى الأجل ،
فأقضى لك ذلك دون أجل ، فجلبنى للابتياح منه الإنساء فى الأمد ، وغلبنى بذلك فلم
أفتقر معه لرأى والد ولا ولد ، ولا أحوجت نفسى فى ذلك لمشورة أحد ، وقلت قم ،

اشتريته منك فضع البركة ، ليصح النجاح فى الحركة ، فقال ففيه ، بارك الله فيه ، وقد بعته لك ، فاقبض متاعك ، وثبت ابتياعك ، وها هو فى قبضتك ، فاشدد وثاقه ، وهلم لنعقد عليك الوثاقة ، فأنحدرت معه لكان التوثيق ، وابتدرت من السعة إلى الضيق . وأوثقنى بالشهادة تحت عقد وثيق ، وحملنى من ركوب الدين ولحاق الشين فى أوعر طريق ، ثم قال لى هذا تيسك فشأنك وإياه ، وما أظنك إلا تتهياه ، وأت بحمالين أربعة ، فإنك لا تقدر أن ترفعه ، ولا يتأتى لك أن يتبعك ولا أن تتبعه ، ولم يبق لك من الكلفة إلا أن يحصل فى محلك ، فبكمل سرور أهلك ، وانطلقت للحمال وقلت هلم إلى ، وقم الآن بين يدي ، حتى انتهينا إلى مجزرة القصاب ، والعنز يطلب فلا يصاب ، فقلت : أين التيس يا أبا أويس ؟ قال إنه قد فر ، ولا أعلم حيث استقر ، قلت أتضيع على مالى لتخيب آمالى ؟ والله لأنحرنك بالعصا ، كمن عصا ، ولأرفعنك إلى الحكام ، تجرى عليك منهم الأحكام ، قال مالى علم به ، ولا بمنقلبه ، لعله فر لأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، فعليك بالبريح ، فأنحدرت أنادى بالأسواق ، وجيران الزقاق ، من ثقف لى تيسا فله البشارة ، بعدما أتى بالأمانة ، وإذا برجل قد خرج من دهليز ، وله هرير وهزيز ، وهو يقول من صاحب العنز المشئوم ؟ لاعدم به النوم ، إن وقعت عليه عينى ، يرتفع الكلام بينه وبينى ، قلت أنا صاحبه ، فما الذى دهاك منى ، أو بلغك عنى ؟ قال إن عنزك حين شرد ، خرج مثل الأسد ، وأوقع الرهج فى البلد ، وأضر بكل أحد ، ودخل فى دهليز الفخارة فقام فيه وقعد ، وكان العمل فيه مطبوخا ونيا ، فلم يترك منه شيئا ، ومنه كانت معيشتى ، وبه استقامت عيشتى ، وأنت ضامن مالى ، فارتفع معى للوالى ، والعنز مع هذا يدور وسط الجمهور ، ويكر كرة العفريت المزجور ، ويأتى بالكسر على ما بقى فى الدهليز من الطواجن والقذور ، والخلق قد انحشدوا للضجيج ، وكثر العياط والعجيج ، وأنت تعرف عسرة الباعة ، وما يحوون من الوضاعة ، وأنا أحاول فى أخذه ما أستطيع ، وأروم لإطاعته من غير مطيع ، والباعة قد أكسبته من الحماقة ، مالم يكن لى به طاقة ، ورجل يقول المحتسب ، وأعرف ما تكتسب ، وإلى من تنتسب ، فقد كثر عنده بك التشكى ، وصاحب الدهليز قبالة يبكى ، وقد وجد عليك الشكوى ، وأيقن أنك كسرت الدعوى ، وأمر بإحضارك ، وهو فى انتظارك ، فشدد وسطك ، واحفظ إبطك ، وإنك تقدم على من فتح باعه للحكم على الباعة ، ونصب لأرباب البراهين ، على

أرباب الشواهين ، ورفع على طبقه ليماً طبقه ، ثم أمسكنى باليمين ، حتى أوصلنى للأمين ، وقال لى أرسلت التيس للفساد ، كائنك فى نعم الله من الحساد ، قلت إنه شرد ، ولم أدر حيث ورد ، قال ولم لا أخذت ميثاقه ، ولم تشدد وثاقه ؟ يا شرطى ! طرده ، واطرح يدك فيه وجرده ، قلت أتجردنى الساعة ولست من الباعة ؟ قال لا بد من ذاك ، أو تضمن ما أفسده هناك ، قلت الضمان الضمان ، والأمان الأمان ! قال قد أمنت إن ضمنت ، وعليك الثقاف ، حتى يقع الإنصاف ، أو ضامن كاف ، فابتدر أحد إخوانى ، وبعض جيرانى ، فآدى عنى ما ظهر بالتقدير ، وآلت الحال للتقدير ، ثم أردت الانصراف بالتيس لا كان كيانه ... وإذا بالشرطى قد دار حولى ، وقال لى كاف فعلى ، بأداء جُعلى ، فقد عطلت من أجلك شغلى ، فلم يك عندى ما نكسر سورتى ، ولا بما نطقى جمرتى ، فاسترهن ميسورتى بيته ليأخذ ما بته ، وتوجهت لدارى ، وقد تقدمت أخبارى ، وقدمت بغبارى ، وتغير صفارى وكبارى ، والتيس على كاهل الحمال يرغو كالبعير ، ويزأر كالأسد إذا فصلت العير ، فقلت للحمال أنزله على مهل ، ألتعبيد قد استهل ، فحين طرحه فى الاسطوان ، كر إلى العدوان ، وصرخ كالشيطان ، وهم أن يقفز الحيطان ، وعلا فوق الجدار ، وأقام الرهجة فى الدار ، ولم تبق فى الزقاق عجز إلا وصلت لئراه ، وتسلى عما اعتراه ، وتقول بكم اشتراه ؟ والأولاد قد أرهقهم لهفه ، ودخل قلوبهم خوفه ، فابتدرت ربة البيت ، وقالت كيت وكيت ، لا خل ولا زيت ، ولا حى ولا ميت ، ولا موسم ولا عيد ، ولا قريب ولا بعيد ، سقت العفريت إلى المنزل ، ورجعت بمعزل ، ومن قال لك اشره ما لم تره ؟ ومن قال لك سقه حتى توثقه ؟ ومتى تفرح زوجتك والعنز أضحيتك ؟ ومتى تطبخ القدور ، وولدك منه مفدور ؟ وبأى قلب تأكل الشوية ، ولم تخلص لك فيه النية ؟ وأقله سعادها ! وأخلف وعداها ! والله لو كان العنز ، يخرج الكنز ، ما عمر لى دارا ، ولا قرب لى جوارا ، أخرج عنى يالكع ، فعل الله بك وصنع ! وما حبسك عن الكباش السمان ، والضأن الرفيعة الأثمان ، يا قليل التحصيل ، يا من لا يعرف الخياطة ولا التفصيل ! أدلك على كبش سمين ، واسع الصدر والجبين ، أكحل عجيب ، أقرن مثل كبش الخطيب ، يعبق من أوداكه كل طيب ، يغلب شحمه على لحمه ، ويسيل الودك من عظمه ، قد علف بالشعير ، ويدر عليه أحسن تدبير ، لا بالصغير ولا بالكبير ، تصلح منه الألوان ، ويستطرف شواه فى كل أوان ،

ويستحسن ثريده وقديده فى سائر الأحيان ؟ قلت بينى لى قولك ، لم لا نعرف فعلك ،
وأين توجد هذه الصفة يا قليلة المعرفة ؟ قالت عند مولانا وكهفنا ومأوانا الرئيس
الأعلى ، الشهاب الأجلى ، القمر الزاهر ، الملك الظاهر ، الذى أعز المسلمين بنعمته ،
وأذل المشركين بنقمته ...

الفصل الثامن

مقامة الوباء للفقير عمر المالحى

" أزهار الرياض " للمقرئ ككتابه الآخر الأشهر منه " نفح الطيب " خزانة حائك تستطيع أن تجد فيها كل شيء : أخبارا تاريخية ، وأثرية ، وأوصافا جغرافية ، وتراجم ، مئات الأبيات من الشعر ، وبالرغم من أن المؤلف نقل صفحات كاملة فيما بعد فى « نفح الطيب » وتوجد أخبار ونصوص فى الوسع أن نجدها فى مصادر أخرى ، فإن الذى يبقى مادة يعتد بها تنتظر خلا وتحليلا ، تلقى ضوءا صافيا على نقاط كثيرة من تاريخ المسلمين وأدبهم فى إسبانيا .

يحتوى الجزء الأول من طبعة القاهرة ^(١) (وكان قد طبع من قبل فى تونس سنة ١٣٢٢ هـ ، وهو الجزء الوحيد من هذه الطبعة الأولى الذى رأى النور) على مقامة تحمل عنوان " مقامة فى الوباء " تحتل الصفحات ١٢٥ - ١٣٢ ترجمتها لأهميتها ، وأضع بين يدي الترجمة التى تأتى فى الصفحات التالية بعض الملاحظات عن الكاتب ومصنفاته .

المقامة مؤرخة فى شهر ربيع الثانى من سنة ٨٤٤ هـ ، ويوافق اليوم الأول من هذا الشهر ٣٠ من أغسطس سنة ١٤٤٠ م ، فهى إذن كتبت قبل نصف قرن من سقوط غرناطة ، وتمثل بهذا أحد النصوص الأدبية الأخيرة فى إسبانيا العربية ، وأسلوبها بالنثر المسجوع الذى كتبت فيه يصبح - كما هى العادة - أكثر من أن يكون صعبا ، ويعسر نقله إلى إسبانية تقرأ ، أما اسم الكاتب فهو فقط الفقير عمر المالحى ، وتسبق مقامته هذه مقامة أخرى له عنوانها " تسريح النصال إلى مقاتل الفصال " ^(٢) .

وللكاتب نفسه ثلاث مقطوعات من الشعر عدة كل منها بيتان ، وأخرى من ثلاثة أبيات ، يضاف إليها بعض أخبار مقتضبة ليست - فى جلها - إلا مديحا ^(٣) .

التاريخ المتأخر الذى ظهر فيه هذا الكاتب ، وقلة المراجع المعاصرة جعلنا جهودنا فى العثور على أخباره غير مجدية ، لم يظهر فى بروكلمان ، ولا فى قهارس «نفح الطيب» Analectes ، ولم يثبت فى وثائق قديرة Codera ، وكالعادة فى مرات كثيرة ليس لنا سوى الرجوع إلى المقرئ نفسه ، فى القسم الثانى من «نفح الطيب» ينشر من جديد " تسريح النصال " مضمومة إلى قصائد نونية ^(٤) مختلفة ، وللأسف فعند الحديث عن كاتبنا هذا لا يزال أفقر منه فى " أزهار الرياض " ، مقتصرًا على بعض الجمل التى يعيد فيها ما سبق أن قاله مع الكلمات ذاتها تقريبًا ، بل إنه يحذف نسبته " الملقى " .

علينا إذن أن نتخلى عن شجرة النسب الطويلة التى اعتاد أن يقدمها لنا المؤرخون العرب فى ترجماتهم ، يدعو المقرئ - فقط - الفقيه عمر الملقى ، أما كونه فقيها فشىء موثوق به كل الثقة ، ويقضى ذلك تضلعه الذى يزهبه فى السبع الصفحات التى يحويها النص المنشور لمقامته فى أمر الوباء ، نفس الثقة فى كونه مالياً يمكن أن نذكرها كذلك : فقراءة المقامة لا تدع للشك مجالا .

ذكر اسمه بالصورة التى ورد بها - فى إيجاز - يجعلنا نظن أنه يتحدث عن شخصية كانت معروفة وشعبية فى زمنه ، الحقيقة أن صاحبنا هذا كان زجالا (صاحب أزجال) ^(٥) ، وعرف بعمق أزجال ابن قزمان ، ومدغليش حسب ما يروى هو نفسه ، يذكره المقرئ قائلا : " أما الفقيه عمر فهو أشهر من نار على علم ، وأزجاله ومنظوماته ومقاماته عند العامة محفوظة ، وعند الخاصة مرفوعة إلا القليل الذى يسمح فى مثله لصاحب القلم ، كمقامته التى سماها تسريح النصال إلى مقاتل الفصال " ^(٦) ، بعد ذلك ينقل المقرئ نص هذه المقامة التى تستهل بمقدمة من النثر المسجوع فى اثنى عشر سطرا ، وبقصيدة نونية من ثمانين بيتا من بحر الطويل ، حذف المقرئ منها خمسة أبيات لما تحويه من بذاءة ^(٧) ، وإن كان فى «نفح الطيب» لم يجد حرجا من إثباتها ^(٨) ، وقد وضع المقرئ الفقيه أبا عمر بين الأدباء الذى بلغوا قمة البلاغة ^(٩) ، وظلت شهرته سائرة بعد موته لوقت طويل ، يقول المقرئ : " وأخباره لم تزل إلى الآن سمر " ^(١٠) .

للأسف لم يحفظ لنا المقرئ أزجال واحد من هؤلاء المتأخرين من شعراء الأندلس الذين كانت العامة تعرف أزجالهم عن ظهر قلب ، نستطيع أن نأخذ فكرة عن الموضوع من قراءة " تسريح النصال " - التى بدون شواهد أخرى لدينا - تغدو - فضلا عن ذلك ذات أهمية فائقة نتعرف من خلالها على شخصية الشاعر - على الأقل فى حقبة

معينة من حياته - قرظ المقرئ هذه المقامة تقریظا حسنا رغم مجون الشاعر^(١١).
يرتسم لنا الكاتب صعلوكا محتالا ، يترقب فرصة سانحة ، ليحصل على منفعة ما ،
والمقدمة الموجزة فى نشر مسجوع هى توسل إلى ساسان ، شيخ الطريقة
الساسانية^(١٢) التى يعترف صاحبنا مرات كثيرة بأنه يريد مخلص لها :

" يا عماد السالكين ، ومحط رحال المستفيدين والمتبركين ، وثمان الضعفاء
والمساكين والمتروكين ، فى طريقك يتنافس المتنافس ، وعلى أعطافك تزهى العباءات
وتروق الدلافس ، وبكتابك تحيا جوامد الأفهام ، وبمذبتك تشرذ ذباب الأوهام ، وفى
زنبيلك يدس التالد والطارف ، وبعصاك يهش على بدائع المعارف ، الله الله فى سالك ،
ضاقت عليه المسالك ، وشاد ، رمى بالبعاد ، أدركته متاعب الحرفة ، وأقيم من صف
أهل الصفة^(١٣) ، فلا يجد نشاطا على ما يتعاطى ، ولا يلقى اغتباطا ، وإن حل زاوية
أو نزل رباطا ، أقصى عن أهل القرب والتخصيص ، وابتلى بمثل حالة برصيص^(١٤) ،
فأحيل عليك ، وتوقفت إقالته على توبة بين يديك ، فكاتبك استدعاء ، واستوهب منك
هداية ودعاء ، ليسير على ما سويت ، ويتحمل عنك أشتات مارويت ، فليقى الأكفاء
الظرفاء عزيزا ، ويباهى بك كل من خاطبك مستجيزا ، فاصرف إلى محيا الرضا ،
وأعد من إيناسك العهد الذى مضى ، ولا تلقنى معرضا ولا معرضا ، وأصغ إلى
سمعك كما قدر الله وقضى " .

بعد هذه المقدمة يدعو الشاعر إلى إحياء الطريقة الساسانية التى وضعها مرور
الغداة وكر العشى فى محك الاختبار فيقول :

وعل نجددها طريقة ساسان	وعض عليها ما توالى الجديدان
ونصرف إليها من مشار عزائم	ونحلف عليها من مؤكد أيمان
ونعقد على حكم الوفاء هواءنا	لنا من من أقوال زور وبهتان
ونقسم على ألا نصدق وأشيا	يروح ويغدو بين إثم وعدوان
يطوف حوالينا لىفسد بيننا	بمنطق إنسان وخدعة شيطان
على أننا فى عالم كلما بدا	تعوذ منه عالم الإنس والجان

(الأبيات من ٣ - ٨) ثم يقول فيما بعد :

ألا فسادع لى فى جنح ليلك دعوة لتنجح آمالى ويرجح ميزانى
(البيت الثامن عشر) .

وفى الأبيات التالية إشارة إلى أنه مطلع على الأدب العربى القديم ، والأدب الأندلسى . فذكر الفتح بن خاقان (البيت ٢٢) ، وابن دراج القسطللى (البيت ٢٤) ، وابن سبعين (البيت ٧٢) ، كما يذكر شخصيات من التاريخ الإشبانى مثل لذريق ويليان (البيت ٣٠) ، وبنى ذى النون (البيت ٥٢) إلى آخره ، أما البيت رقم ٦٣ فله أهميته : لأنه يكشف فيه روايته الأدبية :

ألا فاجزنى يا إمامى بكل ما رويت لمدغليش أو لابن قزمان

وفى نهاية المقامة يذكر المقرئ هذا التنبيه فيقول : " وأثبتها - أى المقامة - لأنها أخف ما رأيت من هزليات الفقيه عمر المالقى رحمه الله وسامحه ، ومثل هذا الهزل قد وقع لكثير من الأئمة على سبيل الإحماض ، ولم يعنوا بها غالبا إلا إظهار البراعة والاقتدار كما فعل الحريرى وغير واحد ، والأعمال بالنيات " (١٥) .

ولا ينبغى أن نحمل كلمات المقرئ المتسامحة محمل الجد ؛ لأنه هو نفسه أثبت بيتين يتوجع فيهما الفقيه عمر من خيانة صديق :

إلى الله ربى أشتكى سوء حالتى عسى فرج يأتى بأفضل حال
وما أسفى إلا لمالى أبيعه وخائن مالى يشتريه بمالى (١٦)
وثمة بيتان آخران لهما صبغة دينية أحدهما نو مغزى أيضا :

جئتكم يارب ولا عذر لى وهل لعبد السوء من معذره ؟
أرجوك فيما أنت أهل له فأنت أهل العفو والمغفرة (١٧)

وقد ظل الشاعر يغرد إلى آخر أيام حياته ، ذكر لنا المقرئ هذين البيتين اللذين قالهما فى مرض وفاته :

يا سامعسى الكلام مختلطا نظما ونشرا ، قلائدا ودرر
صلوا على المصطفى وسيلتنا محمد ، وارحموا الفقيه عمر^(١٨) .

يقول المقرئ : " ومن أبدع ما صدر عنه رحمه الله مقامة فى أمر الوباء ، رأيت أن أثبتها لغرابة منزعها ، وإن كان بعض قصولها لا يجرى على المشهور من مذاهب العلماء " (١٩) .

وضع الفقيه عمر على لسان مالقة رسالة موجهة إلى حمراء غرناطة لمحاولة أن يزعم السلطان وحاشيته رحيلًا إلى هذه المدينة لوجود الوباء فى عاصمة النصريين والسلطان المشار إليه ، والذي يسميه فقط بالغالب بالله [تصحيف الغالب بأمر الله] هو محمد التاسع الأيسر ، المنبوز بالأعسر فى المصادر القشتالية^(٢٠) ، فى العام الذى أرخت فيه المقامة ٨٤٤ = ١٤٤٠ كان يحكم هذا الملك للمرة الثالثة ، وفى نهاية هذا العام وصلت سفارته إلى السلطان المملوكى الظاهر جقمق^(٢١) .

لم أعثّر على خبر وباء فى سنة ١٤٤٠ ، فالمصادر المسيحية تتحدث عن وباء تفشى فى قشتالة سنة ١٤٣٧^(٢٢) ، وعن آخر كان فى قرطبة سنة ١٤٤٢^(٢٣) ، ربما كان فى غرناطة بؤرة صغيرة ، أو وصل تحذير إلى مسامع صاحبنا الفقيه فاتخذه ذريعة ليكتب هذه المقامة ، فعلى أية حال لم يكن له من الأهمية ليترك صدى فى المصادر المسيحية .

كان الفقيه عمر مشغوفًا ببلدته الصغيرة ، وبصفته رجلا ريفيا - بمعنى الكلمة - كان يشعر بالغيرة من العاصمة التى بوأها مكانا حسنا ، لكنه بالنسبة لمالقة يفديها بمهجته ، وفى غرناطة كانت هناك مصالح هامة ، أو أسباب سياسية تمنع السلطان من الرحيل إلى مالقة ، ربما كان يثقل كاهله حديث شريف يشير إليه الفقيه إشارة عابرة ؛ لأنه معروف بما فيه الكفاية ، ويترتب على تأويل الحديث قضية دينية يقوم الفقيه بتقديم حل لها - برغم كلماته - على نحو غير سنّى تماما^(٢٤) .

وغريب أن الفقيه الذى يهتم شخصا بذهاب السلطان إلى مالقة ، لم يذكر الأيسر بالترحيب الذى أولته إياه مالقة حينما ذهب إليها مخلوعا عن عرشه من قبل يوسف

الرابع ابن المول ، اللهم إلا إذا لم يكن يريد أن يذكره بذلك الخطر الذي كان يمثله ترك
غرناطة بالنسبة له (٢٥) .

لا ندري هل حقق الفقيه هدفه أم لا ؟ المظنون أن السلطان قد ظل في العاصمة -
إذ ليس لدينا أخبار عن رحيله - وأن الوفاء لم يبلغ الدرجة التي رسمها الفقيه بمداد
شديد القتامة ، المهم أن المقرئ ضم إلى مصنفاته هذه الرسالة اللطيفة التي على الرغم
من صنعة نثرها المسجوع في فترة الانحطاط الأدبي التي كتبت فيها ، فإن لها سحرا
خاصا في الحديث عن مناظر مالقة ، فوصف الصباح لوحة مليئة بالحياة ، وليس هذا
بشائع في الأدب العربي ، يبدو الفقيه - عادة - مليئا بالفطنة ، وإن يكرر نفسه كثيرا،
فالتشبيه بالنملة والعصفور رؤية إسلامية " للجرادة والنملة " عند لافونتين ، وله نهاية
أكثر جمالا ، ومغزى أكثر شاعرية مما هو تقليدي ملء بالابتذال ، فإن شاعرا -
فضلا عن أنه مالقي - لم يكن في وسعه أن يجد حلا أفضل يتمشى وأفكاره وحياته
نفسها .

هوامش

- (١) أزهار الرياض فى أخبار القاضى عيَّاض ، تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ، القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٢ . ظهر منه ثلاثة أجزاء ، ثم توقف النشر، وانظر إشارة منجزة عن الجزء الأول كتبه اميليو غرثيه غومت فى مجلة الأندلس ، العدد ٦ [١٩٤١] ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ [نشر الجزء الرابع فيما بعد بالمغرب وأعيد نشر الأجزاء الثلاثة هناك أيضا - المترجم] .
- (٢) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ١١٧ - ١٢٤ .
- (٣) أزهار الرياض ج ١ ص ١٢٥ ، ١٣٢ .
- (٤) استخدمت طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد ، فى عشرة أجزاء ، القاهرة ١٩٤٩ ، وما يتعلق بالفقيه عمر موجود فى الجزء السادس ٢٤٥ - ٢٥٠ .
- (٥) نفح الطيب ج ٦ ص ٢٤٥ .
- (٦) أزهار الرياض ج ١ ص ١١٦ .
- (٧) أزهار الرياض ج ١ ص ١٢٢ : ثم ذكر خمسة أبيات أقذع فيها فلذا تركتها .
- (٨) حسب الطبعة المذكورة من نفح الطيب فالأبيات الناقصة ثلاثة (أرقام ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥) وليس خمسة أبيات ، فيها يرسم بألوان حية سهرة حمراء .
- (٩) أزهار الرياض ج ١ ص ١١٥ .
- (١٠) أزهار الرياض ج ١ ص ١١٦ .
- (١١) نفح الطيب ج ٦ ص ٢٤٩ .
- (١٢) ساسان هو شفيع الصعاليك والمتسولة ، والمشعوذة ، والمشتغلين بالعرائس المتحركة إلخ ، وهم قوم يعيشون الحياة متجولين ، ويحملون اسم " بنو ساسان " وينقل عن البعض - فى فارس على وجه الاحتمال عن دوائر مناهضة للساسانيين أن منشأها يرجع إلى ساسان بن اسفنديار أو ابن بهمان الذى صار راعيا ومتسولا بعد أن أقصى عن العرش من قبل أبيه لصالح أخته حمأى . راجع دائرة المعارف الإسلامية ط أولى ج ٤ عام ١٨٥٠ ، مقال : غ . هـ كرامرز .

(١٣) أهل الصُّفَّة ، تعرف بهذا الاسم جماعة من المسلمين صحبوا محمد - صلى الله عليه وسلم - في هجرته إلى المدينة ، ولما لم يكن لديهم كسوة ولا طعام فقد عاشوا في الصُّفَّة ، وهي الجزء الشمالي من المسجد تحت سقيفة دون جدران . كانوا يأكلون شعيرا مقددا يشتري على نفقة الجماعة . راجع دائرة المعارف الإسلامية طبعة أولى ج ١ ص ١٨٩ ، مقال ريكيندورف ، وقد انتقل هذا الاسم ليدل على المشعوذ والصلعوك ، انظر أيضا دوزي ، ملحق ١ ص ٨٣٤ ، "ولان" المعجم العربي الانجليزي ج ١ ، ج ٤ ١٦٩٤ عمود أ .

(١٤) شخصية في رواية إسلامية معروفة جدا في أدب الرحمة ، ولها علاقة بأية قرآنية (سورة الحشر ٥٩ : ١٦) ويبدو أن لها سابقة أقدم ، هو ناسك عاش سنوات طويلة في صومعته ، وقد ارتكب خطيئة في شيخوخته مع إحدى النساء ، ولكي يخفي جريمته قتلها ودفنها ، ويستمر إغراء الشيطان له الذي اكتشف الجريمة ، فيعرض على الشيخ أن ينقذه حينما ذهبوا يشنقونه شريطة أن يعبداه ، وحينما فعل ذلك تخلى الشيطان عنه قائلا له إنه يخاف الله رب العالمين . راجع دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، مقال : د . ب . مأكدونالد ، ونص المقامة يقول برصيص للسجعة ، وبهذه اللفظة ظهر في أحد أسماء الأماكن قصر عابد برصيص في رحلة ابن بطوطة (ذكره مأكدونالد) وانتقل موضوع البرصيص إلى الأدب الإسباني ، انظر مقال : أ . جونتالت بالنتيا ، سوابق إسلامية لرواية جارين . مجلة الأندلس عدد ١ - ١٩٣٣ ص ٣٣٥ - ٣٥٥ .

(١٥) أزهار الرياض ج ١ ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، الجملة الأخيرة حديث شريف معروف وعلى النمط ذاته ورد في نفح الطيب ، راجع ج ٦ ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(١٦) أزهار الرياض ج ١ ص ١٢٥ .

(١٧) أزهار الرياض ج ١ ص ١٣٢ .

(١٨) أزهار الرياض ج ١ ص ١٣٢ .

(١٩) أزهار الرياض ج ١ ص ١٢٥ .

(٢٠) راجع . ل . سيكو دي لوثينا " استدراكات جديدة حول تاريخ بني نصر " في مجلة الأندلس عدد ٢٠ سنة ١٩٥٥ ص ٣٨١ - ٤٠٥ على امتداد كل الصفحات Passim وراجع على وجه أخص ص ٣٩٩ - ٤٠٢ .

(٢١) انظر : عبد العزيز الأهواني " سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة " في مجلة كلية الآداب مجلد ٢٦ عدد ١ (القاهرة مايو ١٩٥٤) ص ٩٥ - ١٢١ ، وراجع كلمة سبكو دي لوثينا في مجلة الأندلس عدد ٢ (١٩٥٥) ص ٢٣٩ - ٢٤١ ، الذي ترجم نص السفارة في " رحلة إلى المشرق " : سفراء غرناطيون في القاهرة ، في مجموعات من الدراسات العربية والعبرية في غرناطة ج ٤ (١٩٥٥) ص ٥ - ٢٠ .

(٢٢) راجع تاريخ مربى صقور خوان الثانى ، ليدرو كارتيو دي هويتى ، طبعة : خ . دي . م . كاريانو ، مدريد ١٩٤٦ ص ٢٤٦ ، وراجع إعادة تحرير تاريخ مربى الصقور الذى قام به الأسقف دون لوبي بارينتوس طبعة خ . دي . م . كاريانو ، مدريد ١٩٤٦ ص ٢١٦ ، ٢١٩ فى الفصل ٣١٨ من تاريخ مربى الصقور ، الفصول التى بها الحكم الذى صدر ضد كونستابل (سنة ١٤٤١) تحكم على دون البرو " أن يظل ست سنوات فى ضياعه فى سان مارتين دي بالدي إجليسياس إى رياتا وفى أراضيه كما يحلو له ... لكن إذا ما توفى أحد فيها خلال الست السنوات المذكورة هذه بالطامون فى تلك الأماكن المذكورة ، ففى وسعه أن يمضى من سان مارتين فى الوقت الذى يموتون فيه إلى الكولينار وإذا كان فى رياتا فى الوقت الذى يموتون يستطيع أن يمضى إلى كاستيلنويو " [ص ٤٢١ ، ٤٢٢] ويفهم منه أن هذه الطواعين كانت كثيرة فى هذه السنوات وغير شديدة ، وكانت تعم مناطق صغيرة ، ولعل مثل هذا قد حدث عام ١٤٤٠ فى غرناطة .

(٢٣) راجع لويس ماريا راميرث دي لاس كاساس ديثا ، حوليات مدينة قرطبة ، فى نشرة الاكاديمية الملكية للعلوم والفنون الجميلة فى قرطبة عدد ١٩ سنة ١٩٤٨ ص ٤٧ .

(٢٤) راجع فى هذه القضية رأى الغزالى عند أسين بلاثيوس " روحانية الغزالى ومفهومها فى المسيحية " مدريد ط ٢ سنة ١٩٣٥ ص ٤٢٩ - ٤٤٢ ، وانظر تحليلاً لهذه المسألة قام به جولديهر فى Die Richtungen Der Islamischen Koranauslegung. Leiden 1952, pp. 357 - 358. عند دراسته للحديث نفسه .

(٢٥) لا ينبغي أن ننسى أيضاً أنه فى هذا التاريخ كان الملك النصرى مشغولاً للغاية بمفاوضات مع خوان الثانى القشتالى ، انظر مذكرات تاريخية نقدية حول الهدنة المعقودة عام ١٤٣٩ بين ملكى قشتالة وغرناطة بقلم خوسيه أمانور دي لوس ريوس ، فى حوليات تجمع التاريخ الملكى رقم ٩ لسنة [١٨٧٩ ، المذكرة الرابعة] .

مقامته فى أمر الوباء

إلى حمراء الملك وقلعته ، ومقر العز ومنعته ، ومطلع كل قمر نصرى يخجل الأعمار بطلعته ، أبقاها الله على تعاقب الزمان ، منزل أمان ودار إيمان ، وأمتعها بحياة الملك الخزرجى الإيمان ، من موجبة إجلالها كما يجب ، المعترفة بفضلها وشرقها وأنوار الشمس لا تحتجب ، والواقفة عند إشارتها وطاعتها ، فإن تأمر أمتثل وإن تدع أستجب ، مألقة ، المستمسكة بذمتها الوثيقة ، المتشوقة إلى أخبارها تشوق المحبة الشفيقة ، إلى ريحانة قلبها فى الحقيقة ، وإلى هذا يا سيدتى ويا عدتى ، ويا ذخيرتى ويا عمدتى ، أمتعنا الله وإياك بحياة من استنقذنا من الورطات ، وردنا من الصواب مما كان منا من الغلطات ، مولانا الغالب بالله وحده ، الموعود بعزیز النصر وقريب الفتح ، والله ميسر وعده .

سلام عليك يتعطر بذكر مولانا أمير المسلمين فوجه ، وينشق كالمسك الفتيت روحه ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد ، فإننى أحمد إليك الله الذى إذا استكفى بعزته كفى ، وإذا استشفى بكلمته شفى ، وإذا سئل بواسع رحمته عفا ، وأصلى على رسوله محمد الكريم المصطفى ، وعلى آله وأصحابه ، أكرم من نصح له وأخلص ووفى .

كتبته إليك يا سيدتى عن نفس قلقة ، ساهرة أرقّة ، حاذرة مشفقة ، ملهبة بل محترقة ، وإنى أقسم عليك بالرب الذى كرمك بالعز وشرفك ، وعرفك من لطائف الفرج بعد الشدة ما عرفك أن تسعدينى على تسكين لوعتى ، وتأمين روعتى ، وتراجع رقادى بعد سهادى وقضاء حاجة جلت فى فؤادى ، وتفهمى مراد إشارتى وإشارة مرادى ، وتتركى هوى النفس الذى هو للحق معاند ، وللرشد معادى .

ومبنى هذه الرسالة إليك على قولهم : « الشفيق مولع بسوء الظن » ومن منن الله على عبده الوقاية من المتألف جل الله العظيم المن ، وعلى قول المتبنى :

ربما ضر عاشق معشوقا ومن البر ما يكون عقوقا .

والمثل الأول لى . والآخر لك ، والله ييسر فى حفظ مولانا أملى وأملك .

وإنى أتعجب من مساعدتك على إقامة مولانا بمنزل ، هذا المرض به فاش ، وهذا الهواء الفاسد بين دياره جاء وماش ، وسمعت أن حديث السفر لما لقة أثقل عليك من حديث رقيب وعاذل وواش ، وأن الآراء فى ذلك اختلفت ، ولم يرجع فيها إلى سنن تقدمت وعوائد سلفت ، والأوائل من المؤمنين رحمهم الله ما تركوا شيئا سدى ، بل نصبوا على كل طريق إلى النجاة علم هدى ، وسمعت يا سيدتى أن القضية عول فيها على المقام والاستسلام وخولف فيها رأى الخليفة الرشيد لما تحول فى مثلها عن سكنى دار السلام ، بمحضر أركان الدين وأعلام الإسلام ، وقد سمعت فى الأجوبة الظريفة ، ما هو صدر من قوله : أخشى أن أكون أول خليفة ، وقد كنت يا سيدتى أرتجى أن يكون لهذا المرض ارتفاع ، أو يحصل بدخول فصل البرد ارتفاع ، فتركت الكتب منتظرة لذلك ، إلى أن تزايدت الحال وأنت على حالك ، لا يمر الترحال بخاطر ولا ببالك ، وأقول : أمّا واجب التسليم لتقدير العزيز العليم ، فمتأكد شرعا ، لا يضيق به المؤمن ذرعا ، لكن ما يفعل المستسلم بالروح والجسد ، إذا قيل له اهرب من الأسد ، وقد أبصره مقبلا إليه ، أو منقضا عليه ، يأخذ فى تحفظه واحتراسه ، أم يصبر لافتراسه ؟ ومن قيل له فى ظلم الليل : ارتفع عن هذا المكان تنج من السيل ، أينام فى مكانه ، أم يبادر إلى السلامة بجهد إمكانه ؟ ومن نودى : هذه الخيل قد طلعت مغيرة ، والرعاة بالجبال مستجيرة ، فارفع غنمك قبل الاكتساح ، فالوقت فى انفساح ، أيتها تسرح ، ولا يبرح ، أم يرفعها لتسلم ، مما تدرب وتعلم ؟ وكذلك إذا قامت الرعاة صفوفا ، وأصابته سهامها فى الخلق ألوفا ، أيرجع الحق تباعدا أم وقوفا ؟ وكذلك أيضا المنازل ، التى تدوم بها الزلازل ، فأرضها فى كل يوم تميد ، ودهش القلوب بها حاضر عتيد ، والخسف بها فى كل يوم ينقص وفى يوم يزيد ، لا تسمع فيها إلا سقوط جدار ، على ركن دار ، وانفكاك الأركان ، على السكان ، وإخراج ميت ، من تحت بيت ، وسقوط سارية ، على جارية ، أيعزم على السكنى والإستيطان ، تحت هذه الحيطان ، أم يأخذ فى الاحتياى ، بالخروج بالأطفال والعيال ؟ يا سيدتى الحمراء ، سألتك فأخبرينى ، وإن تحير فهمى فاعذرينى ، ووصل إلى الكتاب الشريف ، من جنان العريف ، يذكر أن السلامة كانت به مستصحبة لمولانا ولناسه ، وأن العافية كانت بهم منتشقة مع أنفاس

رنده وآسه ، ما عرضت به إلى طيب حاجة ، ولا استدعى فيه المعاور للنظر في زجاجة ، ولا لقول ولا عمل ، ولا بلغ من الجساوة والقساوة أقل أمل ، ولم ينتقص من الساكنين بهذا البستان ، من عبيد مولانا السلطان ، غير فتى من الخصيان ، لا يساوى عشرة دراهم في سوق الفتیان ، والجميع بحمد الله استمرت عافيتهم على استقامة ، بطول أيام الإقامة ، وعرفنى أيضا جنان العريف في وافد كتابه ، ووارد خطابه ، أن رغبته كانت في انتقال مولانا نصره الله من صحيح هوائه ، وسلسبيل مائه ، ونفحة جنابه . وتلاعب النسيم العاطر بين قبابه ، إلى مالقة حيث الجو الصقيل ، والروض الذى يطيب به المقييل ، والراحة التى تمتزج بالأرواح كما قيل ، حيث العرف الأرج ، والوادي المنعرج ، والساحل الذى ينشرح به الصدر الحرج ، حيث البنفسج يدير كنوس البهار ، والياسمين نجوم طالعة بالنهار ، حيث يتمازج طيب الزهر ، بعرف الأترج ونفحات السحر ، حيث يشبه أنين السوانى ، حنين المتعشقات من الفوانى ، إذا حمد الصباح ، وانفلق الإصباح وعمرت صفار القوارب ، ونادت بحرية الشباك إلى المضارب ، وسالت أنوار المشارق على جوانب المغارب ، ونادى محرك الجيش : ظهور الخيل ، وصباح الخير ، واستقبلوا الوادى الكبير لمصيد الأرنب والحوت والطير ، شكر الله جنان العريف على ما قصد ونوى ، وعلى ما أظهر من اتباع حق ومخالفة هوى ، اعتمادا من أخبار الدول القديمة على ما حفظ وروى ، وقال لى يا سيدتى إنك وقفت مع الحديث المنصوص ، الوارد فى مثل هذا المرض على الخصوص ، وفيه النهى عن الخروج من منازل هذا المرض ومواضعه ، وعن القدوم على معتركاته ومصارعه ، والحديث صحيح ، والرشد فيه قول صريح ، ولكن للعلماء فيه أقوال طويلة التفصيل ، وقد لخصها وبينها الإمام ابن رشد فى كتابه الجامع فى البيان والتحصيل ، والاتفاق من الجميع أن النهى فى هذا الحديث ليس بنهى تحريم ، وإنما هو على سبيل إرشاد وأدب وتعليم ، فلا إثم ولا حرج ، على من أقام ولا على من خرج ، وقال عمرو بن العاص : الأفضل الخروج لأهل الفطنة ، اتقاء من اعتقاد يؤدى إلى فتنة ، وكفى بعمرو بن العاص حجة لمن أراد انتصارا ، والكلام كثير ولكنى اختصرته اختصارا ، وإن نظرا قدمه كثير من الصحابة ورجحه ، لخليق بأن يقال فيه ما أسعده وما أنجحه ! ياليت تفقهى كله يكون من هذا القبيل ، وجاريا على خلاف المشهور من قول خليل ، وهنا يقال : ما فى هذه القلة غير

هذا الإغريل ، يا سيدتى الحمراء أراك فى هذه القضية تفقحت وتوقفت فيما بينه عالم وذو علم ، ومنعت مما ليس فيه حرج ولا إثم ، ولو كنت حاضرة لكان لى معك حديث طويل ، واحتجاج ينصره نص وتأويل ، وسمعت أنك أشفقت من عظيم النفقة ، وليس هذا موضع الشفقة ، فالأمن ليس بغال ، ولو يشتري بكل ذخيرة وكل مال ، والأولى بالملامة ، من يفضل شيئاً على السلامة ، القمح يأكله السوس ، والذهب تغنى عنه الفلوس ، فكيف يُستعظمان فيما تؤمن به النفوس ، ويلغنى أنك قلت : مالقة ليس بها زرع ، وبقليل المقام يضيق لها صدر وذرع ، وفلاحتها وحرثها ليس لهما أصل ولا فرع ، وعز على هذا الكلام ، ولكننى سلمت والسلام ، فإن سعري عن سعر غرناطة منحط ، وفى لمحة بصر يضيق منى بالطعام فى كثير من الأيام ساحل وشط ، ولا يُعلم أنه دامت لى شدة قط ، لى فى الاعتصام بالتوكل على الله ما يزيد على سبع مئة العام ، ما أشغلت فيها فكراً ولا قلباً بادخار قوت ولا باحتكار طعام ، أثق فى اليوم والغد ، بالرزق الرغد ، تأتي به الرياح على الأعناق ، ويفيض سيله على جوانب الدواوين وأكناف الأسواق ، وتجلبه الأحباب والأعداء بإذن اللطيف الخبير الوهاب الرزاق .

قالت النملة : افتخارى بادخارى ، قالت العصفورة : توسلى بتوكلى ، قالت النملة : أعتمد على الحب ، قالت العصفورة : أتوكل على الرب . فلما جن الليل ، أقبل السيل ، فخرجت النملة بالعموم ، وبقيت الحبوب بين الدوم ، فنزلت العصفورة وسجدت والتقطت من مدخر النملة كل ما وجدت ، وقالت : خسر المحتكر ، وربح طالب الرزق المبتكر ، الكريم لا يفتخر بما يدخر .

وصح عندي أن الوزير أعزه الله ليس عنده فى هذا كله كلام ولا قول ، وأن الأمر عنده مفوض إلى الرب الذى له القوة والحوّل ، وسمعت يا سيدتى أن هذا السقم ، أعظم تأثيره إنما هو فى قطع الأكباد ، من صغار الأولاد ، الذين من فوق السبع ودون العشر ، وهم فى هذه السنين رياحين القلوب العاطرة النشر ، وهذا إلى كتبى لك أعظم داع ، فإن الأولاد سوائهم والوالد راع ، والراعى لا يترك غنمه فى طريق سبع ضار ، ولا قريباً من حريق نار ، ونحن نشاهد الطير ينقل أفراخه من وكر إلى وكر ، ويستترها بملتف الشجر إذا خاف عليها عادية جارح أو صاحب مكر ، فكيف لا نقتدى فى تأمين روعتنا بمن تقدم من الأكابر ، ونقف فى حامل السيل بأولادنا الأصاغر ، فما عندك فى

هذا كله من القول ومن الجواب ؟ وما يظهر لك من وجه الرأي والصواب ؟ اكتبى بذلك كتابا أعتمد عليه ، وأستند إليه ، وقبلى عنى يد مولانا تقبيلًا ، وياليتنى وجدت إلى ذلك سبيلا ، وأخبريه أنى فى خدمته على نيتى الأولى ، عاكفة على شكر منته الطولى ، أدام الله حياطة البلاد والنفوس بحفظه وحياطته ، وأسمعنى البشارة بقدومه على محدث مالقة من حمراء غرناطته ، ويحفظه فى النفس والأولاد ، والملك والبلاد ، بمنه وفضله .

كتب بتاريخ ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وثمان مئة .

المراجع العربية

- البكرى (أبو عبيد) . فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد البكرى وهو شرح لكتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام . طبعة إحسان عباس وعبد المجيد عابدين . بيروت ١٣٩١ / ١٩٧١ .
- الضبى . كتاب بغية الملتبس . طبعة فرانسيسكو قديرة وخوليان ريبييرا مدريد ١٨٨٥ .
- الحميدى . جذوة المقتبس . طبعة ابن تاويت الطنجى . القاهرة ١٣٧٢ - ١٩٥٢ .
- ابن الأبار . كتاب التكملة لكتاب الصلة . طبعة فرانسيسكو قديرة . مدريد ١٨٨٧ - ١٨٨٩ . فى مجلدين .
- ابن عبد الملك . كتاب الذيل والتكملة . (يتوالى نشره) ج ٤ ، ٥ طبعة إحسان عباس . بيروت دون تاريخ (١٩٦٤ ، ١٩٦٥)
- ابن بسام . الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة . طبعة كلية آداب القاهرة ١/١ ، ٢ ، ١/٤ . القاهرة ١٣٥٨ - ١٩٣٩/٦٤ - ٤٥ .
- ابن بشكوال . كتاب الصلة . طبعة فرانسيسكو قديرة . مدريد ١٨٨٢ - ٨٣ . مجلدان .
- ابن عذارى . البيان المغرب ج ٣ . طبعة ليفى بروفنسال . باريس ١٩٣٠ .
- ابن إدريس (صفوان) كتاب زائد المسافر وعزة محيا الأدب السافر طبعة عبد القادر مهداد . بيروت ١٣٥٨ / ١٩٣٩ .
- ابن الخطيب . الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ . طبعة محمد عبد الله عنان . القاهرة دون تاريخ (١٩٥٥) .
- ابن الخطيب . الإحاطة فى أخبار غرناطة . مخطوط . مكتبة الاسكوريال رقم ١٦٧٣ .

- ابن الخطيب . مركز الإحاطة بأدباء غرناطة . مخطوط . المكتبة الأهلية بباريس رقم ٣٣٤٧ .
- ابن خاقان . مطمح الأنفس فى ملح أهل الأندلس . قسطنطينة ١٣٠٢ .
- ابن خير . فهرسة ما رواه عن شيوخه . طبعة فرانسيسكو قديرة . وخوليان ريبييرا . سرقسطة ١٨٩٤ - ٩٥ .
- ابن منظور . لسان العرب - بولاق : ١٣٠٠ - ١٣٠٨ . فى عشرين جزءاً .
- ابن سعيد . المغرب فى حلى المغرب . طبعة شوقى ضيف . القاهرة (١٩٥٣) مجلدان .
- ابن سعيد . روايات المبرزين . انظر إميليو غرثيه غومث فى ترجمته لهذا الكتاب إلى الإسبانية .
- ابن الزبير . كتاب صلة الصلة . طبعة ليفى بروفنسال . الرباط ١٩٣٧ .
- المقرئ . نفح الطيب . طبعة دوزى وآخرين . ليدن ١٨٥٥ - ٦١ . مجلدان .
- المقرئ . أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض . طبعة مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى . القاهرة ١٣٥٨ - ١٣٦١ / ١٩٣٩ - ١٩٤٢ ثلاثة مجلدات .
- المقرئ . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب . طبعة محيى الدين عبد الحميد . القاهرة ١٣٦٧ / ١٩٤٩ . عشرة أجزاء .
- الرعينى . برنامج شيوخ الرعينى . طبعة إبراهيم شبوح . دمشق ١٣٨١ / ١٩٦٢ .
- الثعالبي . التمثيل والمحاضرة . طبعة عبد الفتاح الحلو - القاهرة ١٣٨١ / ١٩٦١ .
- ياقوت . معجم الأدباء . طبعة أحمد فريد رفاعى . القاهرة ١٣٥٥ - ٥٧ / ١٩٣٦ - ٣٨ فى عشرين جزءاً .

المراجع الأجنبية

Alcala, Pedro de, Petri Hispani de lingua arabica libri duo, ed. paul de Lagarde, Gottlinga 1883 .

Arie, Rachel, Notes sur la Maqâma andalouse, apud Hepéris-Tamuda, IX-1 (1968), pp. 201 - 217.

BROCKELMANN, Carl, Geschichte der arabischen Litteratur (GAL), 2^a ed., Leiden 1943-49, 2 vols.; Supplementband I, II y III, Leiden 1937-42 .

DERENBOURG, Hartwig, Les manuscrits arabes de l'Escorial, Tome I, Paris 1884.

DOZY, R., Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge, 3^a ed., Leyde 1881, 2 vols.

DOZY, R., Supplément aux dictionnaires arabes, 2^a ed., Leyden-Paris 1927, 2 vols.

Encyclopédie de L'Islām (= Enc Islam ¹), Dictionnaire Géographique, Ethnographique et biographique des peuples musulmanes, publié... par M. Th. Houtsma, R. Basset, T. W. Arnold et R. Hertmann, Leide-Paris 1913 - 1942, 4 vols, más I Suplemento.

Encyclopédie de L'Islam, Nouvelle édition (= Enc Islam ²)..., établie par ... H. A. Gibb, J. H. Krammers, E. Lévi-Provençal, J. Schacht, Leyde París, en curso de publicación desde 1954.

FREYTAG, G. W., Arabum Proverbia, Bonn 1838-43, 4 vols.

GARCIA GOMEZ, Emilio, Cinco poetas musulmanes, biografías y estudios, Madrid 1944.

GARCÍA GOMEZ, Emilio, El libro de las banderas de los campeones, de Ibn Sâid al-Magribí, Madrid 1942.

LANE, Edward William, An Arabic-English Lexicon, London-Edinburgh 1863-93, 8 Vols .

NYKL, A. E., Hispano-Arabic Poetry and its relations with the old provençal troubadours, Baltimore 1946.

PERES, Henri, La poésie andalouse en arabe classique au XI^e siècle : ses aspects généraux, ses principaux thèmes et sa valeur documentaire, 2^a ed., Paris 1953.

الإشراف الفنى : حسن كامل



إذا كان الشعر الأندلسي قد حظى بدراسات كثيرة فى اللغة العربية واللغات الأجنبية؛ فإن النثر الأندلسي لم يحظ بمثل هذا النصيب، وبخاصة مقاماته. وهو غبن كبير لضرب من الفن كان ذا سلطان عظيم على الأذواق الأدبية أمدًا بعيدًا حتى العصر الحديث. كتب فيه المويلحي، وحافظ إبراهيم، وكذلك العقاد فى مستهل حياته الأدبية، حتى ارتأى بعض النقاد أن هذا الضرب من الفن هو الأب الشرعى للقصة العربية.

هذا الغبن من قبل الدارسين للمقامات الأندلسية هو ما دفع المترجم إلى ترجمة هذه الدراسات من الإسبانية إلى العربية، عليها تكون خطوة تقفوها خطوات.

